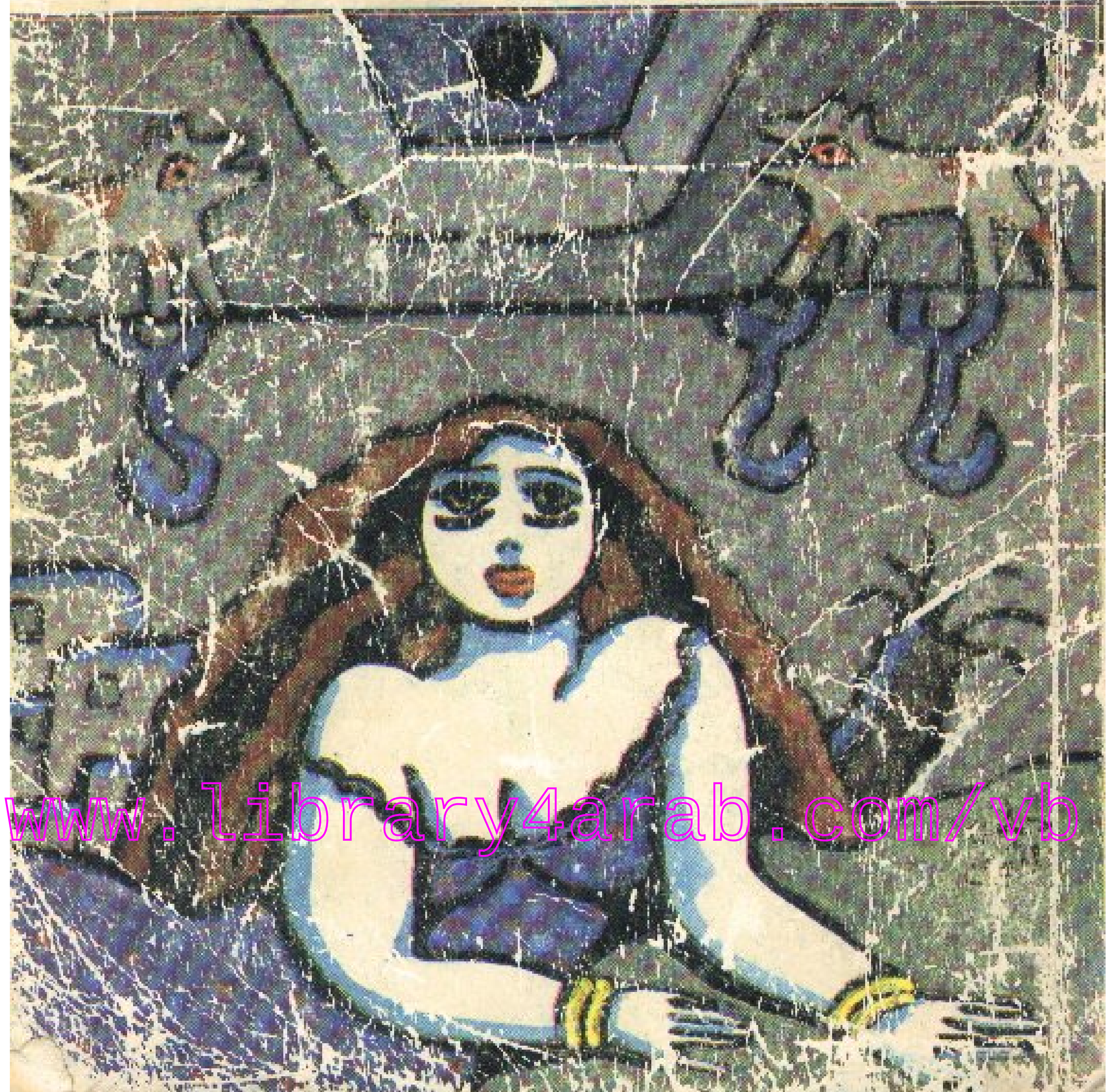
روايات الهلال

بيوت وراء الأشجار

محمد البساطي



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

ثمن النسخة

سوريا ٥٠ ليرة - لبنان ٦٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٢ ريالاً - تونس ٢ دينار - المغرب ٢٥ درهما - البحرين ١,٢٠٠ دينار - الدوحة ١٢ ريالاً - دبي وأبو ظبي ١٢ درهما - مسقط ١,٢٠٠ ريال - غزة والضفة والقدس ٢ دولار - لندن ١,٥ جك.

العدد ٥٣٢

إبريل ١٩٩٣ ● شوال ١٤١٣ هـ

No-532-AP-1993

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٦ جنيها فى ج - م - ع - تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولارا - باقى دول العالم ٤٠ دولارا.

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الاشتراك فى الكويت: السيد عبد العال بسيونى زغلول : الصفا ص - ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص - ب : ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : المصور - القاهرة ج - م - ع -

تلكس : TELEX 92703 hilal u n

فاكس : FAX 3625469

بيوت وراء الأشجار

بقلم

محمد البساطى

●

دار الهلال

www.library4arab.com/vb

الغلاف والرسوم الداخلية
للفنـــــان : حلمى التونى

- ١ -

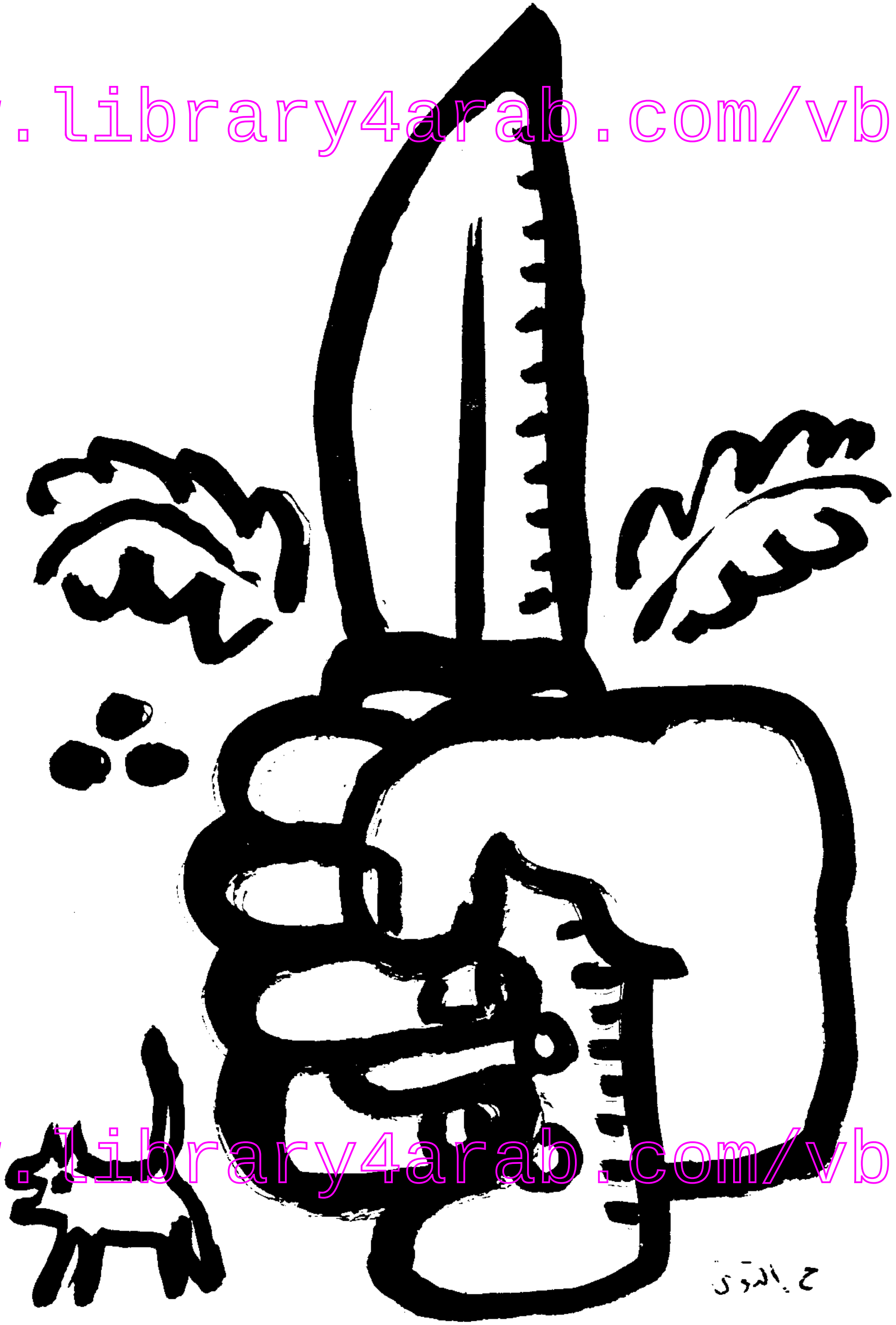
كان يوم السوق عندما توجه مسعد الجزار إلى محل صديقه بركات الجزار مطالبا برقبة ابنه . ظهر فجأة بعد اختفاء دام ثلاثة أيام عقب فضيحة امرأته . وقف أمام دكانه فى الصباح الباكر ، وطرد الكلاب الراقدة . لم تكن له ذبائح على الترعة . غير أنه - كما يفعل كل يوم سوق - خلع جلبابه وعلّقه على مسمار فى الحائط وظل بالفانلة القطنية ذات الأكمام الطويلة والسروال الواسع والحزام العريض من القماش الملون حول وسطه . كان قصيرا ممتلئا ، والشعر الأسود كثيف حول رقبته يمتد إلى كتفيه وأعلى ظهره . مسح الخطاطيف بقطعة قماش مبلل وجذب مقعدا إلى الخارج وجلس . أصحاب المحلات المجاورة يخرجون بضاعتهم ويرصونها على الصناديق وأقفاص الجريد استعدادا للسوق، كانوا يختلسون النظر إليه ، وفى مرات أخرى يتبادلون النظرات فيما بينهم وكأنها رسائل ، وكانوا حريصين وهم ينادون الصبية فى الداخل أن تكون أصواتهم خافتة . ثمة إحساس بتوقع مصيبة انتشر فجأة بظهور مسعد .

تحسس مسعد شعر ذقنه الخشن وأشار للحلاق - وكان يرقبه

من خلف زجاج دكانه - فجاء مهرولا . وبعد أن وضع الفوطة البيضاء على صدره أرسله مسعد للمقهى المجاور ليأتيه بالشيشة والشاى . إنه حتى هذه اللحظة لم يفكر فى الذهاب إلى محل صديقه بركات . هذا مالاحظوه فيما بعد . كان يشرب الشاى ويدخن الشيشة ويحلق ذقنه مسترخيا على المقعد ، نهض بعدها ورش الماء من جردل أمام الدكان ، وأشعل البخور فى وعاء بالداخل ، ثم خرج وطرد الكلاب التى تجمعت ثانية أمام الباب تهز ذيولها وعاد إلى وعاء البخور . وقف ساكنا ينصت لطقطقة حبات الملح والدخان الرقيق يغمر وجهه . تحرك خطوة وتناول سكينا طويلا من فوق المنضدة علقه فى وسطه وانطلق قاصدا محل بركات ، وجاء عنتـر - صبى المقهى - مهرولا من حارة جانبية ولحق به . تبادلا نظرة خاطفة واستمرا فى طريقهما .

كان اليوم شديد الحرارة ، وقد أخذت الحركة تدب فى الشارع . الجميع يعرفون . هذا ما رآه فى الوجوه حوله . وفى الحارة أيضا عرفوا ، وربما كانوا يعرفون طول الوقت . كان الأمر بسيطا حتى أنه ظل وقتا مترددا فى تصديقه . فهو بعد العشاء قال إنه ذاهب إلى العزبة القديمة ليدفع عربون عجول ، وفى الطريق مال إلى المقهى ليشرب الشاى مع أصحابه قبل الذهاب . وعندما أحس ببطنه لا يزال ثقيلا رأى أن يعود للبيت مؤجلا المشوار ليوم آخر . وجد الباب الخارجى مواربا - كان يتذكر ذلك كلما ثارت شكوكه ويقول :

« ربما نسيت حذرها بمرور الوقت » - الولد يأتى من الزريبة الملحقة بمؤخرة البيت حيث تخف القدم . البيت معتم . المصباح الصغير يضئ دائرة صغيرة فى الحوش الداخلى . سمع الخطوات



www.library4arab.com/vb

السريعة . ورآه ظلا معتما يقفز إلى الزريبة ويختفى . وقف جامدا ، ثم سمع صوتا ، وسمعه مرة وأخرى كأنه صرير ألواح السرير . حجرة النوم .الباب مفتوح . اقترب .رآها جالسة في الفراش تنظر إليه . هو يقف وسط الحوش ملتفتا بجانب وجهه لباب المندرة الخلفية المغلق حيث دفع بها . وماذا يسمع ؟ . باب الزريبة مفتوح . يتأرجح دون صوت مع الهواء . الزريبة نصف مسقوفة . أضواء النجوم تنير جانبا منها . خرج من البيت ثم عاد . أرسل يستدعى أخته من العزبة . يجلس على عتبة الباب المفتوح وساقاه داخل البيت .

قالت : تقتلنى يامسعد ؟

يسحبها وراءه ممسكا بمعصمها . عبر بها حوش البيت إلى المندرة الخلفية حيث يحتفظ بعلف البهائم . لم تقاومه . تتعثر وراءه . دفعها أمامه حين بلغ باب المندرة . تناول المفتاح المعلق على الحائط . انحنى ليفتح الباب . ضوء المصباح الصغير . القميص الساتان الأزرق يلتصق بجسدها الممتلىء . يرتعش متجنبا النظر إلى وجهها . يحس بها تحدق فى وجهه . دفعها إلى جوف المندرة المعتم . همست :

– اعطنى الروب .

أدار المفتاح فى القفل ودسه فى جيبه . جدران الحوش طينية قائمة . المصطبة داخل الحوش فوقها الحصير والمخدة حيث اعتاد أن يرقد كلما اشتد الحر . الأرض فى العتمة تبدو وكأنها مبللة . حفرة قرب الباب المفتوح على الزريبة لا تخلو أبدا من الماء . فى كل مرة يحمل

الدريس للبهائم تهوى قدمه فيها . عيدان القصب بربطتها فى ركن الحوش منذ الصباح . جاءت الصرخة الأولى سريعة خافتة ، الفئران تخشاها دائما . حين يدخل الحجرة يحس بها تجرى بين قدميه ، وأحيانا ترتطم به فى قفزاتها الخاطفة بين ربطات الدريس . توالت صراخاتها . تضرب الباب بعنف :

– اللمبــة .

نسوة من الجيران يهرولن على صوت الصراخ . حين رأينه تراجعن . يتجمعن أمام باب بيت مضىء . يتقدمن مرة أخرى . يقفن وراء ظهره . هو فى جلسته على العتبة لا يتحرك . يتهامسن فى صوت مسموع كأنما ينتظرن ردا منه . بعضهن يستندن إلى ضلفة الباب وينظرن إلى الداخل . ملابسهن قريبة من وجهه . تفوح منها رائحة روث البهائم . حين توقف الصراخ ابتعدن . وقفن مرة أخرى أمام البيت المضىء . انتبه على صوت أخته تزجر النسوة عندما تجمعن حولها . زوجها على بعد خطوة يمسك بالحمار . جذبها للداخل . يكلمها ويبحث فى جيبه . أمام باب المندرة المغلق دس المفتاح فى يدها وخرج من باب الزريبة مندفعا .

– اعطنى الروب .

قالتها فى صوت خافت بنبرته العادية وكأنها تنهض من جواره فى الفراش . لم تبك أبدا .

الضجة شديدة فى الشارع . يسير مخترقا الزحام والسكين معلق فى وسطه . بجواره عنتر طويلا

شديد النحول . عندما يضغطهما الزحام يميل عنتر ملتصقا به . يتوقفان لحظة . يبدو عنتر فزعا مادا ذراعيه كأنما ليبعد الناس . يخيفه سكون مسعد وصـمته ونظرته الثابتة . يندفع فى فزعه ليقف أمامه . يتمايل بجسده الطويل شمالا ويمينا مع ضغط الزحام من الجانبين . يبدو مسعد وكأن حركات عنتر الكثيرة تزعجه . تكشيرة خفيفة ظهرت للحظة على جبهته ثم اختفت . العرق الغزير يبلل وجهه ، والشمس فى طريقها لتتوسط السماء ، والظلال تنكمش على الجانبين ، والسوق مكتظ بخلق الله . يذهبون ويأتون ، وعربات الـكارو تكاد تغلق الشارع ، وعندما يبول الحصان يرفعون جلابيبهم مبتعدين . الكثيرون هنا من أهالى العزب لا يعرفهم . أصحاب المحلات على الجانبين يتوقفون عن البيع عندما يلمحونه . يزيحون الزبائن جانبا ويمدون لرؤسهم إلى الخارج . يمضى دون أن يلتفت إليهم قاصدا محل بركات .

★★★

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

- ٢ -

قذفت أمينة بملاء تهاجانبا وفتحت باب المندرة الخلفية . لم تر شيئا فى العتمة . أطلقت بصقتها فى الاتجاه الذى يأتى منه صوت التنفس اللاهث ، ثم أغلقت الباب . تذكرت زوجها وكان لا يزال واقفا فى الخارج مع الحمار . أدخلته . وأخذت الحمار إلى الزريبة . وقفت فى الحوش تتلفت حولها . عندما جاءتها رسالة أخيها دهشت وخافت . فهى لم تدخل بيته منذ زواجه الثانى . جاءت بزوجها معها وتركت الأولاد فى البيت . تجولت فى الحجرات . ووقفت طويلا بحجرة النوم وصعدت السطح ، ونظرت مرة أخرى فى الزريبة ، ثم عادت إلى حجرة النوم . فرشت ملاءة سرير على الأرض ، وأفرغت مافى الدولاب من ملابس سعدية . وجمعت زجاجات العطر من فوق التسريحة ، وجاء زوجها وجلس على عتبة الحجرة . فردت أمامه بعض قطع الملابس الداخلية وهى تلوى فمها ، ثم رمت بها إلى الملاءة . فتحت الأدراج وأخرجت ما بها من عقود الخرز والشرابات ولفت الملاءة ومدتها إلى زوجها . قال :

- أبيت الليلة هنا ؟

رمقته لحظة ، ووضعت اللفة فى ركن الحجرة.

عثرت على حلة بجوار الموقد بها لحم مسلوق . جلست هى وزوجها يتناولان عشاءهما فى الحوش . وضعت أمامه قطع اللحم المكسوة بالدهن . قالت :

– كنا جئنا بالأولاد معنا .

– أنت قلت نتركهم .

– طيب . تذهب فى الصباح وتأتى بهم .

كان يختلس نظرات خاطفة نحو باب المندرة المغلق ، وبعد العشاء اتجه إلى حجرة النوم فجذبته امرأته من جلبابه ، فاستدار إلى الحوش الخارجى ورقد على المصطبة . أعدت لنفسها فرشة أمام المندرة المغلقة قالت :

– حكمته . أرسل لى يوم زواجه منها . وأرسل لى يوم موتها .

صمتت لحظة تتأمل فى الصدفة العجيبة ، ثم قالت :

– وفى المرتين أنت أوصلتنى .

حدقت قليلا فى أرض الحوش الطينية ، ثم نهضت دون صوت ومضت لترقد على السرير فى حجرة النوم .

★★★

يطل بيت مسعد من الخلف على وسعاية تؤدى للحقول . بها نخلة عاجزة وبقايا مضخة مياه . ومنذ سنوات قبل أن تدخل مياه المواسير

البلدة كانت الوسعاية أكثر اتساعا تزدحم بالنساء والأولاد العرايا طول النهار حول المضخة .

كانت امرأة مسعد الأولى تجلس على عتبة باب البيت الخلفى ومعها امرأتان أو ثلاث ينتظرن دورهن أمام المضخة . كن خلال انتظارهن يساعدن فى كنس البيت وغسيل الملابس . كان الباب مفتوحا على سعته ، يدخلن ويخرجن ، وكثيرا ما كان مسعد يخرج إليهن بالعصا وقت القيلولة وهو بالسروال والصديرى على أثر صياحهن ، ويهرولن بعيدا وقد تركن الأوانى حول المضخة فكان يضربها بقدمه لاعنا آباءهن وأزواجهن ، ثم يعود إلى قيلولته .

وتظل النسوة بعيدا على حدود الوسعاية لا يسمع لهن صوت حتى تشير لهن امرأة مسعد بأنه غـط فى النوم فيتسللن فى هـــدوء إلى المضخة . وعندما امتدت مواسير الماء إلى بيوت البلدة خف الزحام حول المضخة ، ونزل مسعد ذات ليلة وضرب حولها بالفأس ، وملأ جوفها بالرمال والتراب ، وبعدها بأيام أقام سدا بمدخل الحارة التى تصل الوسعاية بشارع السوق ، وانقطعت القدم من الوسعاية ، وبعد شهرين مدّ سورا من بيته إلى منتصف الوسعاية ، ولم يشتك أحد ، فمد سورا من الجانب الآخر ثم أغلقه وعرّش نصفه . وعندما اكتملت الزريبة طلق زوجته الأولى . كانت أول من تكلم عن سرقته لأرض الحكومة . وقفت أمام البيت قبل طلاقها بساعة أثر علقة من زوجها وصاحت شمالا ويمينا بأنها ستبلغ الحكومة عن سرقته فى هذا اليوم أيضا اختفى من

البيت، وأرسل فى استدعاء أخته التى حضرت مع زوجها ، وحسمت الموقف سريعا عندما رفضت امرأة مسعد الخروج من البيت . فمن

خلال الباب المفتوح أخذت تقذف بملابس زوجة أخيها إلى الشارع .

وهرولت المرأة لتجمع ملابسها المتناثرة ، ووقفت أمينة بالباب تنفض يديها فى صوت مدو ، ثم دخلت وأغلقت الباب وراءها . غير أنها عادت وفتحته قليلا وعايرتها « بعدم الخلفة » .

قفزت زوجة مسعد إلى وسط الشارع وعرت ساقيها صائحة :

- أنا ؟ أنا يا أمينة . العيب منى أنا ؟

وبعد قليل جلست تبكى وتلطم أمام الباب المغلق .

★★★

- ٣ -

جلست أمينة على العتبة أمام البيت بعد أن فرشت فوقها سجادة صغيرة جاءت بها من حجرة النوم . وضعت بجانبها صينية من الفضة عليها براد الشاى وفنجان من الصينى . تجمعت حولها النسوة من الحارة . وأنزلت احداهن طفلها من فوق كتفها لتجلسه على السجادة فنهرتها أمينة . صبت الشاى فى الفنجان ورفعته بالطبق إلى شفتيها . تحسست النسوة السجادة ووبرتها الكثيفة .

قالت احداهن :

- حاجاتها حلوة .

- عندها كل حاجة .

قالت أمينة : كلها من بلاد بره . أشكال وألوان . من فنجان الشاى طقم كامل . وطقم قهوة . السجادة أمام السرير . قدمها لا تلمس الأرض . بعدها تلبس الشبشب القطيفة .

هزت قدميها فرأين الشبشب الأزرق :

- تلبسه مع القميص الأزرق . والشبشب الوردي مع القميص الوردى . تأتى لها أم محمد من العزبة كل يوم جمعة لتدعك لها كعبيها بالحجر . تعالوا .

اندفعت إلى الداخل والنسوة وراءها . عادت وحملت الصينية بالبراد ولحقت بهن فى الحوش . أخذتهن رأسا إلى حجرة النوم . توقفن أمام باب المندرة الخلفية وأشرن لها إن كانت بداخلها . أومأت أمينة وغضبت حين رأتهن يتقدمن من باب المندرة ويلصقن آذانهن . همست احداهن :

- ست سعدية ؟

أبعدتهن أمينة عن المندرة ، ودفعتهن نحو الباب الخارجى ، غير أنهن تسربن من يديها إلى حجرة النوم . توقفن بعتبتها وقد أخذتهن الدهشة . الحجرة تسبح فى ضوء أزرق هادىء كأنها قبة السماء . ستائر طويلة زرقاء ممتدة من السقف إلى الأرض تغطى الجدران الطينية الكالحة ، ونافذة عريضة فى الجدار المواجه ينساب منها ضوء الصباح من خلف الستارة فتنكسر حدته ويذوب فى اللون الأزرق . الأرض مغطاة بالحصير الملون تتناثر فوقه قطع مستديرة من السجاد . السرير يتوسط الحجرة . ستائره عند الرأس بلون أزرق فاتح ، والناموسية تتدرج فى انحدارها إلى القدمين . مساند وشلتة طويلة فى ركن الحجرة وشيشة وموقد صغير وطبلية مسندة إلى الحائط . الدولاب بعرض الحائط . وفوق التسريحة مرآة بيضاوية كبيرة وصورة لمسعد فى اطار ذهبى بدا فيها عارى الرأس يلبس البدلة والكرافتة ومنديل فى جيب السترة وشعر رأسه يميل جانبا . صاحت إحداهن وهى تتأمل الصورة :



www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

- عم مسعد . والنبى ما عرفته ؟

- وحاجاتها يا أمينة ؟

قالت أمينة وقد أحست أنهن يسحبنها فى الكلام :

- أى حاجات ؟ كل المفاتيح مع مسعد .

- والفساتين . الأخضر والأصفر والأحمر ؟

- والمفتوح ؟

- آه . والنبى يا أمينة نشوفه .

- مفتوح ؟

- كانت تلبسه على السطح . كله عريان . نصف صدرها وذراعاها وكتفاها .

نظرت إليهن أمينة فى شك . لابد أنهن قد رأينها فى الصباح الباكر وهى تضع الربطتين أمام زوجها فوق الحمار .

قالت احداهن وهى تتحسس ظهر السرير :

- وكانت هى والمسخوط يناما هنا ؟

غضبت أمينة من سؤالها وزجرتها فى عنف ، ثم دفعتهن إلى الخارج .

يبدو وكأن كل حياة البيت كانت تجرى داخل حجرة النوم ، فلم يعثرن على شىء فى الحوش سوى طست الغسيل فى الركن البعيد وزير قديم ملقى على جانبه وجوال ممتلىء لنصفه بالقوالح . وفى حجرة الضيوف رأين كنبتين من الخشب فوقهما الحصير وثلاثة مقاعد من الخيزران .

جلسن حول أمينة فى الخارج . هى على العتبة وهن على الأرض. كانت تعرفهن واحدة واحدة ، ومنهن من كن صديقات طفولة لها . لقد عاشت صباها وشبابها فى هذا البيت حتى تزوجت . قالت إنه فى كل مرة يرسل أخوها لها تعرف أن مصيبة قد حدثت ، ويوم زواجه من الأولى تركت بيتها وزوجها وجاءت ، أقامت معهما أسبوعا تكنس وتطبخ وتغسل وتنام فى حجرة الضيوف ، غسلت لها الفوطة واللباس . الوسخة بنت الكلب . فى الآخر تفتشنى قبل أن أخرج ، حتى قطعتا اللحم التى جاء بهما مسعد للأولاد قلبت فيهما بيدها .

– بيتك يا أختى . بيت أبيك وأخيك .

خلعت أمينة الشبشب ووضعته بجوارها على العتبة وتربعت :

– واللى يخفى اسمها من الدنيا تطردنى يوم زواجها . كنت واقفة فى الحوش بعد الفرح . قلت أقضى معها يومين أساعدها . معى الأولاد وزوجى يربط الحمار فى الزريبة . سمعتها تقول لمسعد :

– هنا فى البيت ؟

ومسعد يهدئها : سينامون فى حجرة الضيوف .

– هنا فى البيت ؟

– وأين يذهبون ؟

– تذهب إلى بيتها . ما العيب ؟

الأولاد بجوارى يمسكون جلبابى ، وزوجى أغلق باب الزريبة ودخل الحوش وصوتها يعلو :

– سأقول أنا لها . ابتعد .

انبعث ضوء فى الحوش عندما فتحت باب حجرة النوم . ورأيتها تقف على عتبتها . لا شىء يسترها . قميص خفيف والضوء يأتى من

خلفها . انكمشنا أنا وزوجى والأولاد فى الركن .

– أمينة . خذى الأولاد وارجعى البيت .

ومدت يدها بلفة « بعض الحلوى للأولاد » .

رجعنا ليلتها إلى العزبة على وش الفجر . لم أدخل بيتها أبدا . زوجته الأولى عندما كان ينام معها ترقع بالصوت . توقظ الحارة كلها .

– حا تقولى لنا ؟

– الأسبوع الذى قضيته معهما كنت أسمعها بأذنى . تقول كلاما . من أين تأتى به !! وفى الصباح أراها فى السرير ناشفة ومقشفة كالمعزة ثم تأتى على العتبة لتسرح شعرها . اسم الله . كأنما لم يكفها الصياح طول الليل . الثانية تغلق على نفسها البيت . لا تريد حسا أو نفسا معها . صحة وعافية وبياض . عينى عليك يامسعد .

– انما يا أمينة . لم يقتلها ؟

– سيقتلها . وأين تذهب ؟ أعرف مسعد . قبل أن يفعل أى شىء يفكر مرة ومرة . افرضى قتلها أولا . ثم يبحث عن الولد ، وإلى أن يجده يكون البوليس أمسكه ويفلت الولد . انما يقتل الولد أولا .

– ويمسكه البوليس وهى تفلت ؟

– وأين هى ؟ قبل أن يأتى البوليس . هى ساعة زمن . يكون جز رقبتها .

سمعت نقرا يأتى من الداخل . أرادت النسوة أن يتبعنها . دفعتهن بعيدا وأغلقت البـــاب وراءها . كان النقر مستمرا على بـاب المندرة . مرت بها إلى دولاب صغير بجوار الموقد واجهته من السلك . جاءت بطبق به قطعة جبن ورغيف . أخرجت المفتاح من صدرها وكانت تعلقه فى رقبتها بدوبارة . قبل أن تضعه فى القفل سمعت صوتا مبحوحا من الداخل :

– أريد أن أستحم .

أجفلت أمينة ، وتجمدت يدها على المفتاح . كانت تحدق فى شراسة إلى الباب المغلق ، ثم أدارت المفتاح بطيئا ، ومدت الطبق من الفتحة الضيقة :

– خــذى .

دفعت يد بيضاء الطبق إلى الخارج . تعلقت عينا أمينة بالذراع . هى لم تر فى حياتها ذراعا بهذا الجمال . كان بضا ناعما ، وبقعتان داكنتان قرب المرفق ، لابد أنها آثار أصابع مسعد . مدت يدها مترددة تريد أن تلمس البقعتين ، انسحبت الذراع إلى الداخل . أغلقت أمينة الباب وعبرت الحوش فى طريقها إلى الخارج .

– تستحم !! بنت الكلب .

توقفت قبل أن تصل إلى الباب :

– المصاغ ؟

خاتمان كانا باصبعيها عنــدما مـدت ذراعهـا . أحدهمــا بفص أحمر . وأربع غوايش . وأين السلاسل ؟ والحلق ؟ والأساور ؟ . عادت قفزا إلى المندرة .

– سعدية . أين المصاغ ؟

– أى مصاغ ؟

– مصاغك .

أذنها ملتصقة بالباب :

– أنا أحق به ياسعدية .

– اقتحمت عيناها حجرة النوم حيث بدا جانب من السرير خلال الباب المفتوح .

– كلها ساعة ويأتي مسعد يخلص عليك .

جرت إلى حجرة النوم . جذبت المراتب أرضا والمخدات واللحاف وتحسست القطن داخله. وصعدت إلى الدولاب. وأخرجت أدراج التسريحة وجمعت الحصير عن الأرض . ثم عادت لاهثة إلى المندرة المغلقة :

– سعدية . تستحمين ؟

– آه .

– أعمل لك شايا أولا .

– لا . أستحم .

– سأدفىء لك الماء . أين تستحمين ؟ عندك ؟

– آه .

– وماذا تعطيني ؟

ألصقت جسدها بالباب . همست :

– سيأخذ مسعد كل مصاغك . ومن يعرف . ربما يعطيه لواحدة أخـــرى .

صمتت قليلا . ثم قالت :

– ماذا تعطيني ؟

– ماذا تريدين ؟

– خـــاتم .

– طيب .

- أبو فص أحمر .

فتحت الباب . ومدت ذراعها للداخل . أطبقت قبضتها على الخاتم وأقفلت الباب . جرت إلى نصف الزريبة غير المعرش حيث ضوء الشمس . نفخت فى الخاتم ومسحته بطرف طرحتها . تألق الفص الأحمر كأنما ينفث نارا . وضعته فى إصبعها . كان واسعا . تأملته مبهورة، ثم خلعته ودسته فى صدرها، حملت الطست إلى المندرة المغلقة.

- اعطنى المقعد الصغير .

جاءت بالمقعد الواطىء من الحمام ودفعت به إليها .

- اعطنى غيارا نظيفا .

جذبت أمينة الباب لتغلقه :

- اتركيه مواربا لتغيير الهواء . لن أخرج .

ترددت أمينة لحظة ، ثم تركت الباب مواربا . وكانت تسخن الماء فى حلة كبيرة على الموقد . وعيناها على الباب .

★ ★ ★

أدخلت أمينة رأسها من فتحة الباب دون صوت ونظرت . رائحة عفونة الدريس ، وخيوط مائلة من ضوء النهار تنفذ من شبكة السلك التى تغطى الكوة قرب السقف ، ورأت - بعد أن اعتادت عيناها الظلمة الخفيفة - أكوام الدريس المعتمة تملأ نصف المندرة وتكاد تصل إلى السقف ، ثم رأتها فى الجانب الآخر قرب الركن تجلس على المقعد الواطىء داخل الطست تصب الماء بالكوز على رأسها . الحجرة تسبح فى غبشة من الضوء كأنه ضوء الفجر . ظهرها للباب ، الجسد البضّ

الممتلىء يتحرك فى نعومة فوق المقعد متلقفا دفقات الماء من الكوز ، ورغوة الصابون تنزلق فى المجرى الضيق بمنتصف ظهرها . جانباها مشدودان يتقوسان عند الخصر . تميل برأسها للوراء وتصب الماء على وجهها مغمضة العينين ، منفرجة الفم ، ويدها بالكوز تتلمس الحلة الممتلئة بالماء . صبت الماء مرة وأخرى على وجهها . استرخت والماء ينزلق بين ثدييها .

سارت أمينة فى خطوات خفيفة ووقفت بجوارها . رأت عن قرب رعشة جسدها عندما تصب الماء ، ورغوة الصابون تتجمع بين ساقيها المضمومتين . وجهها هادىء متألق ، ولسانها يتصيد قطرات الماء . مدت يدها المعروقة قريبا من الجسد المبلل . همست فى صوت خافت :

- يا اختى قمر . أدعك لك ظهرك .

انتفضت المرأة وحدقت فزعة إلى اليد القاتمة الممدودة مالت بجسدها بعيدا وذراعها يغطى صدرها . كانت لحظة خاطفة ، أمينة وقد انحنت قليلا نحوها ونظرة رقيقة فى عينيها ، والمرأة منكمشة تبادلها النظر وشعرها المبتل يلتصق بجانبى وجهها . بعدها تصلبت أمينة فى وقفتها ويداها تضمان جلبابها ، ثم فجأة هوت بكفها فى عُنف على وجه المرأة ، واتجهت إلى الباب وأغلقته وراءها .

***

www.library4arab.com/vb

– ٤ –

الشارع طويل ، والزحام لا يخف . أمواج من البشر تتدفق إلى الشارع الضيق، وطول الأسبوع لا يراهم أحد. عند المنعطف الثانى يأتى محل بركات . هما لم يبلغا بعد المنعطف الأول .

يبدو وجه عنتر مكفهرا وهو يزيح الناس جانبا ، وخلفه مسعد يكسوه الغبار والعرق . الحذاء فى قدمى عنتر واسع رغم قطعة القماش التى حشرها فى مقدمته . أحيانا تخرج قدمه من الحذاء . يحس بها طليقة على الأرض ، ويكون عليه أن ينحنى وسط الأقدام الكثيرة باحثا عن . هو يخشى هذه اللحظات، فهو أدرى الناس بمسعد ، ويعرف أنه قد ينفجر لسبب لا يتوقعه أحد . الحذاء كان لمسعد . أعطته له امرأته الثانية « الست سعدية » . عنده حذاءان ، صنع لهما نصف نعل ، نادرا ما يلبسهما ، غير أنه يلمعهما بالورنيش كل ليلة ويرصهما متجاورين ، في الصيف يشترى له مسعد جلبابين ، وفى الشتاء أيضا . هو الآن فى الثلاثين من عمره ، لا يعرف له أب أو أم . تعوّد الناس على رؤيته فى

المقهى منذ كان غلاما يقذف به صاحب المقهى على درجات السلم . الدكان بجوار المقهى . فى كل مرة يضربه صاحب المقهى يجرى إلى الدكان . كان صبيا ناحلا ، وجلباب قديم على اللحم مشقوق من الصدر حتى منتصف بطنه . أيامها كان يغسل أرض المقهى بعد خروج الزبائن فى آخر الليل ويبيت ليلته على أريكة داخلها . يندفع إلى دكان مسعد ، ويقف صامتا يجفف أنفه . ويأتى مسعد ضاحكا : « ضربك ؟ ».

ويعطيه قرشا : اذهب إلى البيت لتفطر .

زوجته الأولى كالحدأة . كانت بعد أن يكنس البيت تجلسه على العتبة فى الخارج ، وتجمع كسر العيش فى كفيها وتلقى به مع حبات الملح فى حجره . يسير به مسعد إلى المقهى وكفه الثقيلة على رأسه ، وبعد أن يتحدث مع صاحب المقهى يشرب قهوته ويمضى .

كل صباح يأتيه بالشيشة والشاى فى الدكان ، ويظل قابعا بجواره حتى ينتهى ، يحدثه عن زبائن الليل وكل ما قالوه . له الآن حجرة استأجرها بثلاثين قرشا فى الشهر ، وأعطته الست سعدية حصيرة ومرتبة ولحافا ومخدة وصندوقا من الكرتون يحفظ به ملابسه .

فى الصباح الباكر كان يلبس جلبابا نظيفا وحذاء وسترة باعها له أحد المدرسين ، ويذهب إلى بائع الجرائد ، يشترى جريدة الأخبار ومجلة المرأة ، ويمضى إلى بيت مسعد . يقف تحت الشباك مناديا :

– عم مسعد .

– ادخل ياعنتر .

يدفع الباب الموارب ويدخل ، وينادى مرة أخرى وهو بالحوش :

– عم مسعد .

– تعال ياعنتر .

يجدهما دائما فى حجرة النوم يتناولان الفطور . تستقبله على عتبة الحجرة والروب على كتفيها ، فيعطيها الجريدة والمجلة ، ويرفض فى شدة دعوتهما الفطور . يجلس على المصطبة فى الحوش بانتظار مسعد الذى قال « انتظر خذنى معك » .

يسير هو و « مسعد » إلى الدكان . ثم يمضى إلى حجرته ، فيعلق الجلباب والسترة على الحائط ويخلع الحذاء ويلبس جلبابا قديما ويذهب إلى المقهى . هو الآن يقف خلف النصبة يعد الطلبات ، ويحملها الصبية إلى الزبائن . المقهى اتسع بعد أن استولى صاحبه على جانب من شاطىء الترعة المواجه . يرشه فى الصباح والعصر بالماء . وفى الليل يعلق كلوبا بفرع الشجرة . الزبائن فى آخر السهرة يفضلون الجلوس على المقاعد هناك .

أحيانا يناديه مسعد ويرسله بالمشتريات للبيت . الست سعدية لا تتركه قبل أن يتناول شيئا ، وتمنعه من البقاء على العتبة فى الخارج . يجلس على المصطبة فى الحوش وتقدم له طبقا به فطائر وجبن . هو حين يتذكر هذه اللحظات يرى نفسه على المصطبة مضموم الساقين ويداه بينهما ينظر إلى مقدمة حذائه اللامع ، ويحس بالسترة ضيقة تحت إبطيه . تحدثه فى ضحك وحماس . وجهها مشرق مورد وحزام الروب يتدلى طويلا بجانبها . تحكى دائما عن النسوة فى الحارة وتلصصهن عليها . هى لا تشفق عليهن . تراهن مثل الماعز على كوم السباخ . تصعد بمقعدها إلى سطح البيت المسوّر . قدماها ممدوتان إلى مقعد آخر . تقرأ المجلة . هن على أسطح البيوت المجاورة يختلسن النظر إليها . تمر عيناها بهن وكأنها لا تراهن . تفك حزام الروب كاشفة عن القميص الحريرى . هى لا تزهو بأشيائها ، لكنها تحب نظراتهن المحدقة إليها .

تلبس كل مرة شيئا مغايرا لافتا للنظر . تمشط شعرها أحيانا على هيئة كعكة بجانب رأسها يزينها شريط فضى، وأحيانا تضفره ومنديل رأس زاهى اللون يتخلل الضفيرة . تصعد ساعة العصر . الوقت القصير الذى يكن فيه دون عمل ، يجمعن الغسيل أو يجففن الحبوب . لا تسمح لهن بدخول البيت . ربما هى تود لو فعلن ذلك ، تبدو له أحيانا وكأنها لا تعرف كيف تفتح لهن الباب . يقفن بعيدا فى حذر وفضول . هو لا يقول شيئا . ينصت لها ولا يقول شيئا . وأحيانا تبدو وكأنها كما تقول لا تريد أحدا منهن يدخل بيتها فتظل فى بعدها وتألقها حديثا هامسا يتداوله الناس . وهو يحرص فى كل مرة يذهب إلى بيت مسعد أن يلبس الجلباب النظيف والسترة والحذاء . فهو لا يريدها أن تشعر بأى حرج من ملابسه القديمة .

يطفىء أضواء المقهى . الفجر يلوح فى الأفق . يقف متعبا مكدودا على عتبة المقهى . تلك اللحظات التعسة وهو يجرى ببصره خلف الكلاب فى الساحة . فى الطريق يتذكر الكلوب المعلق على فرع الشجرة على الشاطىء . دون الكلوبات الأخرى يحمر ضوؤه مبكرا ، وينفث دخانا ثم ينطفىء . لا ينتبه إليه عندما يسحب المقاعد للداخل . يظل واقفا مترددا ويداه فى فتحتى السيالة محدقا إلى الشجرة .

– ومن يسرق كلوبا ؟

البلدة نائمة . وحركته الدائبة توقفت فجأة . لا شىء يفعله الآن . وفى النهاية يسير مع الشاطىء حتى يصل إلى حجرته . لمح كلبا يقف ساكنا أمام دكان مسعد . ثم يأخذ فى النباح . حين اعتادت عيناه الظلمة داخل الدكان رأى « مسعد » مكوما فى الركن .

– عم مسعد ؟

– عنتر .

استسلم لذراعيه الممدودتين . أغلق عنتر باب الدكان . ووقف حائرا. أين يذهب به . إنه حتى هذه اللحظة لم يكن يعرف شيئا غير أنه حين رأى وقفته المتهالكة وقدميه ورأسه العارى أحس أن شيئا رهيبا قد حدث . همس مترددا :

– نذهب إلى البيت ؟

هز مسعد رأسه رافضا . أخذه إلى المقهى . اكتفى بضوء الفجر.

– أعمل لك شايا ياعم مسعد ؟

التفت وراَه ممدا على أريكة بجوار الحائط . جلس على مقعد غير بعيد . من خلال الباب المفتوح بدت أسطح البيوت وقمم الأشجار وكأنما تنفض غبشة الفجر ، والكلب الذى تبعهما وقف ساكنا على عتبة المقهى.

– نذهب عندى ياعم مسعد ؟

كان راقدا على جنبه وذراعه مطوية تحت رأسه .

– عنتر . لا أريد أن يحدث لى شىء قبل أن أنتهى .

النسوة تأخذ طريقها إلى الترعة . سمع عنتر أصواتهن تأتى من الشاطىء.

– نذهب ياعم مسعد ؟

– أين ؟

– عندى .

تلفت حوله . دعك وجهه بكفه ونهض . سارا صامتين .

الحجرة معتمة . النافذة الوحيدة أغلقت بلوح من خشب الأبلكاش. أشعل عنتر المصباح . قال مسعد .

- أطفئه .

نفخ عنتر فى الشعلة فأطفأها . تمدد مسعد على الفراش . بعد قليل استغرق فى النوم . أخرج عنتر ملاءة نظيفة من الصندوق غطاه بها وخرج .

توجه إلى بيت مسعد ليأتى له بحذاء وجلباب نظيف . استقبلته أمينة وحكت له كل شىء . فى البداية أبدت استغرابها لأنه لا يعرف ولأن « مسعد » مادام يقيم عنده لم يخبره ، وترددت لحظة وكانت تتفحصه بعينيها . وعندما قررت أن تمسك لسانها واستدارت وبلغت نهاية الحوش عادت وحكت له . يقبع بجوار المصطبة منصتا وذراعاه مدليتان فوق ركبتيه لحظتها أحس وكأنها تحكى عن ناس لا يعرفهم . فمها الواسع وآثار النشوق بين أسنانها ، ويداها تضربان فخذيها من حين لآخر ، متوقعا فى كل لحظة أن يرى الست سعدية فجأة بمدخل الحوش تطوى المجلة تحت ابطها وتضحك ، وكعباها النظيفتان محتقنتان بمؤخرة الشبشب .

- حذاء وجلباب .

انتبه إليها : - سيحتاج لجلباب آخر . وغيارات وفوطة . والشال.

مسعد لا يزال نائما . وضع ملابسه على المقعد الواطىء بجواره. ولبس جلبابه والحذاء والسترة وخرج .

بيت الغرباوى غير بعيد ، بجوار الجامع ، وجذع نخلة ينتصب خلفه ، الغرباوى لا يسمح بقطعه أبدا . يحلو له فى ليالى الصيف أن يفرش حصيرا أمامه ، ويجلس مستندا إليه بظهره مستقبلا زواره . يقول ضاحكا :

– نخلة وليست نخلة . ولا تضايق أحدا .

التراب مبلل بالندى . يميل من حين لآخر إلى عتبات البيوت فيزيل ما لصق بحذائه .

وقف ساكنا أمام البيت المغلق .

– الوقت لا يزال مبكرا .

هو يعرف عادات الرجل . ينهض لصلاة الفجر فى الجامع ، ثم يعود للنوم ، وفى السابعة يحمل حقيبة تشقق جلدها منتفخة بالأوراق ولفافة العيش والجبن ، والعباءة مطوية على كتفه متوجها إلى المحكمة فى المدينة . يسير إلى المحطة وحوله نفر من الأهالى كانوا ينتظرونه على الكوبـرى أو فى المصلى – هؤلاء الذين لهم قضايا أو مصالح فى المحكمة – ويتناول أحدهم الحقيبة منه . لحظتها يفرد الغرباوى العباءة على كتفيه ويخرج المسبحة من جيبه .

مكتبه أمام مبنى المحكمة ، فوقه رسم محفور لميزان العدالة بعرض حائط المبنى ، زبائنه كثيرون . هو لا يكتفى بكتابة العرائض والشكاوى ، يرشدهم أيضا إلى ما يفعلون ، وكثيرا ما تنبأ بالأحكام قبل صدورها .

استدار عنتر مبتعدا . أخذ جولة واسعة على الشاطىء والمحطة والمقهى ، ورأى الشمس قرصا أحمـر ، ثم رآهـا تتألق وأشعتها تجفف البلل . كان مستندا بظهره لجدار الجامع وعيناه على باب بيت الغرباوى. حين رأى الناس فى البيوت المجاورة يخرجون ويدخلون دق الباب .

– عم غرباوى . لى كلمة معك .

– أهلا يا ابنى .

كان لا يزال بجلباب البيت . ورأى عنتر أثناء دخوله الحقيبة على مقعد بجوار الباب وفوقها العباءة . عندما بدأ يحكى ما حدث لمسعد قال الغرباوى :

– بلغنى .

نظر إليه عنتر صامتا . وقال الغرباوى :

– آه بلغنى . نصف البلد تعرف .

سأله عنتر عما سيحدث لمسعد . كان الغرباوى يخلع جلبابه ويلبس جلبابا نظيفا جاءت به امرأته ووقفت بمدخل الحجرة . قال :

– تسألنى ؟ . سأقول لك .

اقترب من منضدة فى الركن فوقها أوراق وكتب :

– عمك مسعد مغفّل . كان يجب أن يقتلهما عندما دخل . أو على الأقل يقتلها . لم يفعل . ينتظر ماذا ؟ الله أعلم .

– سيقتلها .

– آه . سيقتلها . الأشياء الصغيرة لا يحس بها الناس . الأمر يختلف . يحبسها فى المندرة ويخرج يجرى شمالا ويمينا ثم يعود ويقتلها . ما شاء الله . كل شيء له أصول .

وضع المسبحة وأشياء أخرى أخذها من فوق المكتبة فى جيبه ، ثم فتح كتابا ومال جذعه جانبا واكتسى وجهه وقارا وصرامة .

– المادة ٢٣٠ من قانون العقوبات . سبق الاصرار . اعدام ، المادة ٢٣٧ من فاجأ زوجته حال تلبسها . حبس . سنة . ستة شهور . براءة .

أغلق الكتاب : – مغفل .

توجه إلى الحقيبة . قالت امرأته :

- يعنى راح الجدع .

نظر عنتر إليها ، ثم عاد بنظراته إلى الغرباوى . هو لم يفهم شيئا غير أنه أحس أن أمرا مرعبا قد حدث .

- عم غرباوى . أنت لم تقل له ؟

- أقول ماذا ؟

لم تقل هذا الكلام لعم مسعد . أنت صديقه . وسيفعل أى شىء تقوله .

- يا ابنى أنا لا أتدخل أبدا . المصيبة تأخذ مجراها . ما قدر لها . مثل القاضى . يأتى دوره فى النهاية . وحين يأتون أقول لهم . صديقى على عينى . ولن يحزن أحد على مسعد مثلى .

حمل حقيبته والعباءة وخرج . تبعه عنتر متباطئا ، ثم استدار وعاد إلى حجرته .

مسعد يجلس على الفراش وقدماه ممدودتان إلى الأرض .

- أين ذهبت ؟

- مررت على المقهى . تغسل وجهك ؟

صب عليه الماء . وجاء عنتر بفوطة تأملها مسعد لحظة .

- قال عنتر :

- ذهبت إلى البيت فأحضرت لك بعض الأشياء .

- رأيت أمينة ؟

- هى التى أعطتها لى .

حمل الطست ودلق مياه الغسيل فى الخارج . قال مسعد :

– أين هو ؟

وضع عنتر الطست بجوار الحائط . أحس من نبرة صوته الخافت أنه يسأل عن عامر .

– اختفى يا عم مسعد .

– سألت من ؟

– سألت فى الحوارى حول بيتهم . يقولون إنه لم يعد إلى البيت .

– هل يعرفون ؟

– كلهم يعرفون .

– وأنت . كيف عرفت ؟

– خالتى أمينة .

– أمينة أخبرتك ؟

– آه . قالت لى .

صمت لحظة . وكان ينظر إليه فى هدوء :

– وأين يكون قد ذهب ؟

تناولا فطورهما . وكان يشرب الشاى مستندا بظهره للحائط وعيناه تنظران إلى الضوء المتسرب من لوح الأبلكاش .

– وماذا تفعل فى الشتاء ؟

وأشار إلى لوح الأبلكاش .

– أغطيه بالورق .

– ويكفى ؟

– حين يشتد البرد أضع جلبابا أيضا .

– أغيّر ملابسى .

نهض وأعطى ظهره لعنتر . خلع جلبابه وملابسه الداخلية . لمح

الشعر الأسود الكثيف يكسو كتفيه ويمتد قليلا إلى ظهره . لحظتها تذكر المرّة الوحيدة التى رأى كتف سعدية عاريا . كانت خارجة من حجرة النوم تحاول أدخال ذراعها فى كم الروب الذى كان مقلوبا . وعندما تنبهت كانت قد بلغت الحوش . وأحست بنظرته إلى كتفها . وابتسمت له كما تفعل فى كل مرة ، وهو لم يقصد شيئًا بنظرته . كان كتفها جميلا وعاريا لذلك نظر إليه .

جمع الملابس المتسخة فى لفة تحت إبطه :

– أذهب بها إلى البيت ؟

– لا تخبر أحداً أننى هنا . وقل لأمينة أيضا .

– والغذاء ياعم مسعد .

– أى شىء .

فى حجرته تعود أن يكون وحيدا . يأتى مع الفجر ويجلس على الفرشة يحس ببقايا ضجة المقهى أشبه بسحابة تبتعد . يشعل وابور الجاز وينصت إلى وشّه ، مخدرا بثقل نوم لا يأتى ، وحين يبزغ ضوء النهار من ثقوب لوح الأبلكاش يطفىء الوابور ويتمدد فى الفراش .

مسعد فى رقدته لا يغيرها ووجهه للحائط . يخرج عنتر ويعود . مرة وأخرى . يتحرك بهدوء فى الحجرة حتى لا يصطدم بالأشياء . مع بداية الليل قبع ساكنا بركن الحجرة ويداه حول ركبتيه .

– عنتر ؟

– أيوه يا عم مسعد .

– أنت هنا ؟

لم يتحرك من رقدته . الحجرة معتمة .

– كم الساعة ؟

– بعد صلاة العشاء .

– النهار جرى سريعا . ذهبت هناك ؟

– آه أحضرت كل ما طلبته . خالتى أمينة تقول إنها ستبحث عن الساعة .

– تبحث ؟ أين النور ؟

– قلت لى فى الفجر أن أطفىء اللمبة .

أشعل المصباح . جلس مسعد متربعا .

– ذهبت المقهى ؟

– ذهبت ساعتين .

– وأين هو ؟

– يقولون إن أباه ضربه وطرده من البيت .

– ضربه وطرده من البيت !!

وضع عنتر أرغفة العيش الطرى والجبن أمامه . قال :

– أرسلتها خالتى أمينة .

– طرده من البيت !!

– يقولون إنه لو ظل فى البيت ستعرف مكانه .

– هو بركات لم يتغير من صغره . يطويك ويفردك دون أن تشعر.

– أنت لا تعرفه مثلى يا عم مسعد .

– مثلك ؟ طفولتنا وشبابنا معا . لم نفترق أبدا . عندك شاى ؟

أشعل عنتر وابور الجاز ، ووضع البراد فوقه .

– عندما فتحت محل الجزارة . فتح هو أيضا محلا . تزوجنا فى يوم واحد . وجلسنا فى كوشة واحدة . هو بجوارى والمرأتان معا . طول الوقت نضحك ونتغامز. وكنا نذهب معا لنشترى العجول من العزب .

بعدها أخذ كل واحد طريقه . عمر طويل .

– تعرف سيد الفكهاني ؟

– آه سيد .

– كان يرسلنى من حين لآخر بقفص فاكهة لبيت الأخصائى الاجتماعى .

– أعرف الحكاية .

– أى حكاية ؟

– علاقة سيد بامرأة الأخصائى .

– غير صحيح . الأخصائى وامرأته من البندر . ويوم كان قادما للعمل فى البلد تعرّف بهما سيد فى القطار . كانوا يحكون عن هذا اليوم كثيرا أمامى . وسيد كان يأخذهما فى حنطوره للفسحة فى الليل على الطريق الزراعى ويأخذهما إلى العزب . وكانا يدعوانه للبيت . وهو أيضا كان يدعوهما . امرأة الأخصائى تخرج بدون ملاءة . وذراعاها عاريتان . وتجلس فى الحنطور ساقا فوق الأخرى . والناس تتكلم وتحكى . سيد كذا وكذا ويرسلنى بالفاكهة . والحكاية أن الأخصائى كان يشاركه فى التجارة . حتى الحنطور كان بالنصف .

– يشارك « سيد » ؟

– آه . سيد حين اكتشف أننى عرفت عقله طار . وأمسكنى وأقسم بالطلاق أننى لو أخبرت أحدا سيذبحنى . ويوم رحل الأخصائى من البلد . أعطاه سيد حقه بالمليم وباع الحنطور .

– سبحان الله .

- بركات جاء فى يوم وأخذنى على جانب فى المقهى . وسألنى إن كان سيد حقيقة يرسلنى بالفاكهة لامرأة الأخصائى . قلت له : آه يرسلنى . وسألنى : وهى ؟ وغمز بعينه . قلت له : وهى ماذا ؟ . نظر إلىّ مبتسما وضربنى على رأسى . ويوم السوق نادانى . أعطانى لفة بها ثلاثة كيلو لحم . آه ياعم مسعد . بتلو مشفى . أحْسن قطعية . خذها يا عنتر لامرأة الأخصائى . حاضر يا عم بركات .

- وذهبت بها ؟

- أحضرتها هنا .

- أخذتها .

- أكلتها على يومين .

انفجر مسعد فى الضحك حتى انتابه السعال .

- يومان . ثلاثة ياعم مسعد . خذ ياعنتر اللفة لامرأة الأخصائى. فخذة ضانى . أحضرتها هنا . وجئت بالأولاد من المقهى . شهران على هذه الحال . أتناول اللحم صباحا وظهرا ومساء حتى جاءنى الاسهال .

مسعد يلهث والضحك يخنقه ممسكا بصدره .

- كل مرة يأخذنى على جانب فى المقهى ويسألنى : ألم تقل شيئا ؟ وأقول أبدا ياعم بركات . شهران ياعم مسعد .

صب الشاى فى الكوبين مستقبلا بوجهه النحيل المعروق البخار المتصاعد . كان يحكى متمهلا ، وصوته يأتى كأنما من بعيد :

- ما حدث بعد ذلك ياعم مسعد يحكى لك عنه شعبان تاجر الأقمشة . بركات يسير فى شارع السوق . باله رائق . يلبس الجلباب

المكوى والكوفية الحرير على صدره . يمشى يتمخطر . لمح امرأة الأخصائى فى محل الأقمشة . وقف أمام المحل ، وأخذ يحدث شعبان .

مسعد على أهبة الضحك ممسكا بصدره .

– « الواحد زهقان ياشعبان فى البلد دى » .

رفع قدمه ووضعها على بسطة الدكان . ويده قذفت بطرف الكوفية إلى كتفه . وملّس طرفى شاربه باصبعيه . شعبان لم يكن يوما صديقا لبركات ، ولم يجلس يوما فى المقهى . وعندما يشترى لحما يوم السوق يزن له بركات الاثنين كيلو بالتمام ويلفهما دون أن ينظر إليه أو يهتم باعتراضه على الدهن الكثير ودون أن يضيف له قطعة كبدة كما يفعل مع بعض الزبائن ويدفع له باللفة وكأنما يزيحه من أمام المحل . شعبان كان يفرد أتواب القماش أمام امرأة الأخصائى وسمع صوت بركات المدوى داخل الدكان . نظر إليه دون أن يفهم شيئا . بركات انطلق فى الكلام قال إنه يفكر فى السفر يومين فسحة وإنه حائر يذهب إلى الاسكندرية أم القاهرة . الفلوس كثيرة والحمد لله . ومحل الجزارة يكسب أجدع من أى محل . وقال : إن العجل يقف على الواحد بخمسين جنيه ويبيعه بثلاثمائة . واحسب ياشعبان ثلاثة عجول فى الأسبوع . ولا مرتب أجدع وزير . ودعا شعبان لمرافقته وسيأخذه على حسابه .

شعبان يحدق إليه من فوق رأس المرأة وفمه مفتوح . هى لم تلتفت تتحسس القماش وظهرها للباب . تلبس حذاء بكعب وفستانا لا يغطى ساقيها الممتلئتين . بركات بعد الكلام سكت مترقبا . يعطى جانبه للدكان وينظر بعيدا بامتداد الشارع وكأن وقفته جاءت صدفة . ثم فجأة

في خطوتين كان يقف بجوار الست . لم نسمع أبدا أنه تجرأ على أى واحدة من نساء البلدة . مال عليها . كانت قصيرة تصل إلى كتفه . وشعبان مذهولا مال بجسده فوق البنك . سألها بركات إن كان اللحم أعجبها . نفضت الست رأسها للوراء ، وابتعدت قليلا وقالت : أى لحم ؟. بركات يحاصرها بجسده الطويل محاولا أن يهمس لها وقد انتفخت عروق رقبته « اللحم . اللحم . يوم السوق . الفخذة الضانى . أنا بركات» الست فزعة تتلفت حولها . يقترب محاولا الالتصاق بها . يهمس لها بكلام رفض شعبان أن يعيده . دفعته وجرت إلى الباب ، وقذفته ببصقة عنيفة. مسعد يتلوى على الفرشة وقد أنهكه الضحك والسعال . أشار بيده لعنتر أن يسكت . يلهث ورأسه للحائط ، ثم رقد ساكنا . همس عنتر وهو يضع البراد والكوبين جانبا :

- آه . كانت حكاية . وحتى الآن لا يعرف .

ارتجف جسد مسعد لحظة ، وظل راقدا .

★ ★ ★

- ٥ -

ربطات الدريس تشغل أكثر من نصف المندرة . ترتفع إلى السقف مثل سد معتم . حيز ضيق تتحرك فيه . الرطوبة أتلفت ربطات الدريس السفلى . تفوح منها رئحة العفونة . تحس فى الليل بالرائحة تلتصق بجسدها . أفزعتها الفئران . تبدو كأنما أهاجها وجودها فى المندرة . تقفز من جهة لأخرى ، وتمرق خاطفة أمام وجهها . ملمسها الناعم يجعلها ترتجف وتصرخ . بدا لها أن تتماسك ، ومشت خطوات فى الحيز الضيق . ضوء الليل يأتى من شبكة السلك التى تغطى الكوة . رأت الفئران تختفى فى الدريس ثم تتلصص برءوسها . وفيما بعد لم تعد تنتبه لها . تقفز فوقها وهى راقدة ، وأحيانا تحس بها فوق يدها أو قدمها فتنفضها وتظل فى رقدتها . هى قادرة على التحمل . ساعة أو ساعتين . وربما ليلة . كانت أمها تعيرها بأنها لا تحس . ويوم أمسكت النار فى فستانها صرخت من مرآها ولم تحس بلحم فخذها المحترق إلا بعد أن أطفأوا النار . أعدت لنفسها فرشة من الدريس جذبتها من ربطة فى المنتصف . هى التى خنقتها رائحة عفونته أحست قبل أن تغفو فى نهاية الليل بطراوته وميزت رائحة البرسيم الذابل . كانت كالمأخوذة . يحيرها ما حدث . منذ تحركت بهم المركب وهى تتوقع الكثير . ترمق الشاطىء وهو يختفى ، يراودها احساس بأنها لن تعود . غير أنها لم

تتوقع هذه النهاية . تستعيد اللحظة مرة وأخرى . فى كل مرة تحس أنها نسيت شيئا . حركة . صوت . وأن كل شيء كان يمكن فى لحظة أن يتغير . هى ممددة على السرير . مرتكزة بكوعها . ضوء المصباح فى الحوش . ترى حذاء عامر بجوار السرير . عامر يختفى . فى قفزة واحدة اختفى . هى لم تسمع شيئا . لابد أنه سمع الصوت . عندما رأته يقفز سمعت صوت القدم تدب فى الحوش . تريد أن تستبقيه . لو أنه لم يخرج ؟ . هو بملابسه . مسعد قادم . يقف فجأة بجوار المصباح محدقا نحو باب الزريبة ، ثم يندفع إلى الحجرة . وهو ممسك بها بعد أن جذبها من الفراش . يتلفت حوله كأنما يبحث عن شيء . أصابعه تغوص فى لحم ذراعها . يدفعها إلى خارج الحجرة .

– أهو عامر ؟

– هو .

لم تقل شيئا آخر . تحس وجهها ملتهبا . ورعشة تجرى فى جسدها . كادت تستسلم لها ، ثم فى لحظة تماسكت . ينحنى على المفتاح الذى لم يستجب للدوران . يراودها شعور بأنه سيبطش بها لو ظل الباب مغلقا . تعلقت عيناها بيده التى تدير المفتاح. بالحلقة مفتاحان. رأته يستعمل المفتاح الخطأ . تخشى أن تنبهه . يرج الباب مزمجرا . تحس أن حياتها معلقة بفتح الباب . تعاودها الرعشة . هو وقد اكتشف المفتاح الآخر بدا وكأنما أراحه ذلك . أكان وهما ؟ . غير أنها أحست بقبضته ترتخى قليلا حول ذراعها . يدفعها للداخل . نظرته المعتمة إلى صدرها . هذا الجزء من جسدها الذى لم تسمح له بأن يلمسه. فى كل مرة تدخل الحجرة بعـــد الاســتحمام ، وقميص النــــوم لا يزال

ملتصقا بجسدها ، ترى عينيه تحدقان إلى صدرها ، وتسمع صوت تنفسه اللاهث وقد تحفز للنهوض . تقول :

– لا أريدهما أن يتهدلا .

– ولمن تحتفظين بهما ؟

حاولت مرة وأخرى أن تبعد يديه عن صدرها . تسمع صرير أسنانه ، تحس بالألم يصعد إلى رأسها . حين كشفت له عن البقع الزرقاء بدا متعجبا . قال إنه لن يلمس صدرها بعد ذلك . وقال إنه كان يعض امرأته الأولى ولا يترك ذلك أثرا عليها .

قالت له قبل الزواج بأيام إنها غير عذراء .

– زوجك الأول ؟

– لم يكن لى زوج أول أو ثان .

– أخوك أخبرنى .

– وبماذا أخبرك ؟

– أرانى قسيمة طلاقك .

– كله على الورق . لم نتزوج .

– وأخبرنى أنك عذراء . لم أسأله . أخبرنى من نفسه .

أمسكت عن الكلام . هو لا يريد أن يبحث فى حياتها ، كأنما يخشى أن يجد ما يعكر مزاجه . فرحا بها يتربع فى ركن الحجرة على الشلتة وعيناه لا تفارقانها . فى كل مرة تنهض من جلستها يصوب نظرته إلى ساقيها . تحس بالخجل . تضم طرف الجلباب أثناء قيامها . يقول إنه لا يصدق حتى الآن أنها امرأته . يسألها :

– لماذا رضيت بى ؟

تبتسم . يضحك جذلا :

– وماذا قدمت لك ؟ بيت قديم . حجرة نوم . وماذا أيضا ؟ . لا شىء . طلقت امرأتى؟ كنت سأطلقها بدونك . قولى . لماذا رضيت بى ؟

تبتسم مرة أخرى : ـ أنت تعرف .

– لا تقولى ظروف التهجير ومعيشتك فى المدرسة .

– لم أقل ظروف التهجير .

– آه . آلاف المهجرين فى البلد . لماذا أنا . ولماذا أنت ؟

– قدر ومكتوب .

– ولا تقولى الصدفة .

– آه . الصدفة .

– كان يمكنك أن ترفضينى .

يستمر الحوار بينهما طويلا . فى البداية كان يعجبها الحديث وملاحقته لها حتى تعترف أنه جذبها برجولته من اللحظة الأولى . غير أنه كعادته حين يجدها تبتهج بما يقول كان يعيد نفس الكلام من يوم لآخر . هى لا تنفر منه . تحس منذ دخلت البيت بسلام وهدوء بعد حياة عاصفة استمرت شهورا طويلة . له تصرفات كثيرة لا تعجبها . فهو نادرا ما يغادر البيت بعد الظهر . لا يزور أحدا . ولا يزوره أحد . هى الغريبة عن البلدة . يقول لها ضاحكا :

– أصدقائى كنت ألتقى بهم فى المقهى . والآن لا أحب أن ألقاهم .

هى لا تفعل شيئا حين تكون وحدها . تسمع الراديو الذى لا يحب سماعه . وتقرأ فى كومة المجلات التى تزيد من أسبوع لآخر، وتسرح



www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

بأفكارها بعيدا إلى مدينتها . تتمدد على الفراش وترقد براحتها . أحيانا يقضى فى البيت أياما بطولها لا يخرج . هى وقد استنفدت كل وسائل تسليته تجلس غير بعيدة منكوشةالشعر متبلدة تماما دون أن تهتم بإغلاق فتحة صدرها أو تغطية فخذيها العاريين كما اعتادت أن تفعل حين يجلسان معا . هى لا تدرى ماذا يصيبها . أهى نظراته التى تلاحقها دائما ؟ حبستها فى البيت ؟ . جلسته فى الركن متربصا لها ؟ تشعر بحنين طاغ إلى مدينتها كأن شيئا أثار ذكرياتها . هو على الشلتة يدخن الشيشة . يسألها إن كانت متعبة ؟ وتقول إنها غير متعبة . يعيد حديثا سبق أن أضحكها . تنظر إليه صامتة . هامدة . يختلس النظر إليها من حين لآخر . ينتظر أن تصعد إلى الفراش فيرمى بكل ما فى يده ويلحق بها . عادة يعود للبيت فى الظهيرة . يتناول غذاء خفيفا . يشير إلى كومة المجلات والجرائد على طرف التسريحة مبديا دهشته وهو فى طريقه إلى الركن : وقرأتها كلها ؟

يلبس جلبابا خفيفا على اللحم . شعر صدره الرمادى الكثيف يبدو من فتحة الجلباب . تضحكها فكرة أنه يفعل ذلك لإثارتها . بكرشه الضخم المرتخى وقامته القصيرة ومشيته المتمايلة مبتسما لها والجلباب لا يستر شيئا من جسده . يقول :

– لم لا تلبسين مثلى . نحن فى البيت لا يرانا أحد ؟

وجبته الرئيسية يتناولها فى العشاء . الطيور . وفى أيام الذبيح ذيل العجل ولحم الفقرات والمخاصى . تقول له:

– وما يعجبك فيها ؟

- هذا طعام الرجال .

تعد له الشيشة . أمامها وعاء الفخار به القوالح المشتعلة . تغير له الحجر تلوْ الحجر . يصمت طويلا بعد الطعام . يدخن وعيناه زائغتان . يتجشأ مرة وأخرى . يبدو وكأنما عادت إليه الحياة . يمد يده تحت جلبابها . كانت - حتى تستريح من ملاحقته طول الليل - تصعد إلى الفراش مبكرا . ويهرع إليها . بعد أن ينتهى يتنهد عميقا . هو وقد اكتمل يومه أخيرا يغط فى النوم .

قال لها : وأين تذهبين ؟

- نزور أحدا .

- لا أحد هنا نزوره . رأيت ما يكفينى من الناس .

- نزور أخى .

- فى المدرسة ؟

هو لم يقصد الاساءة . غير أنه من صمتها شعر بالخطأ . قال غاضبا :

- المدرسة كلها عائلات من مدن القناة . حتى أنت لا تعرفينهم إذا كان ولابد أمر عليه غدا . يأتى لزيارتنا .

- أردت أن نخرج . نمشى .

بعدها بيومين جاء البيت وقت المغرب مهللا :

- البسى . سيأتى الحنطور بعد قليل .

يحوم حولها وهى تغير ملابسها : « أنت لا تفهمين . أن يأتى الحنطور إلى هنا !! »

الحنطور الوحيد فى البلدة . تستأجره نسوة العائلات الكبيرة للنزهة على الطريق الزراعى أو زيارة الأقارب فى العزب والبلاد المجاورة. يرن جرسه مخترقا الظلمة . لا أحد يراه فى العتمة . الحصان بنى محروق ، والعربة سوداء بغطائها المنسدل . صاحبها طويل نحيل يلبس شتاء وصيفا «بنطلون كاكى» وسترة زرقاء بصف طويل من الأزرار الذهبية مغلقة عند الرقبة ، وعلى رأسه قبعة رمادية . يجلس جامدا على مقدمة الحنطور . لا ينظر يمينا أو شمالا . حدد لاستخدامه أجرا مرتفعا، ولم يقبل أحد عليه . غير أن الرجل كان له رأس كالحجر . اختار للحنطور مكانا لا يغيره فى ظل المقهى حيث يجلس . يغسله صباحا وعصرا . رفض أن يخفض سعره أو يسخره فى أية مشاوير عادية . قال كلمة قاطعة : لا يركبه غير الأكابر . وقال إنه لم يركبه من قبل غير الخواجات . ولولا الحرب ما ركبه غير الخواجات . ويبصق لاعنا الحكومة التى دفعت البلاد لحرب لا تحتملها . ولا يعرف نهايتها إلا الله .

– « ومن ينتصر عليهم ؟ ومن انتصر عليهم من قبل ؟ انجليز . فرنسيون . أمريكان . من تظنون أننا نحارب ؟ آه . من تظنون ؟ وعندهم المدافع أشكالا وألوانا من أيام بونابرت . ونحن ماذا عندنا ؟ ومن قبل بونابرت وهم يضربوننا . يأتون ويضربوننا . وماذا كنا نفعل ؟ مئات السنين. أى بلد فى العالم تُحتل مئات السنين ؟ نحن ناس ظرفاء . فى كل مرة يضربوننا نهتف يسقط الاستعمار . ويهتفون معنا . وماذا يحدث الآن ؟ آلاف الناس . ملايين . يتركون بيوتهم ويهيمون كالكلاب الضالة . والنهاية ؟ » .

فى الوقت الذى كان يتعجل فيه الجميع الرحيل من مدن القناة

وقد حملوا القليل من متاعهم ظل هو مرابطا بحنطوره على الشاطىء لأيام متتالية . كان الزحام شديدا على المراكب ونصحوه أن يترك الحنطور حتى يجد لنفسه مكانا . وقال إنه لن يرحل بدونه . واقترح عليه البعض طريق البر . نظر إليهم دون أن يرد . عن أى طريق يتحدثون ؟ وإن كان غير مغلق أى حصان بعربة يقطعه ؟ . وقبلت مركب صغير – فى ليلة خف فيه الزحام – أن تعبر به البحيرة . كانت ليلة رهيبة . ظل طوال الوقت واقفا بقاع المركب يحسس بيده على رقبة الحصان . عمر طويل قضياه معا ، ورأيا أياما رائعة . كعادته تفهم الموقف . لم يصهل مرة واحدة . يحرك قوائمه حين تتأرجح المركب خفيفا .

مرت أسابيع وهو على المقهى لا يأتيه زبون . يتناول كوبا واحدا من الشاى فى الصباح حتى يبرر استخدامه للمقعد طول اليوم ، وحتى لا يضيق به صاحب المقهى . وحين يشتد الزحام كان يتنازل عن المقعد للزبائن .

يتناول سندوتشات الفول صباحا وظهرا وليلا . يشتريها على الحساب من صاحب قدرة فول من المهجرين يبعد مكانه مسافة ثلاثة شوارع عن المقهى ، ويقضى الليل داخل الحنطور متلفعا ببطانية يطويها فى الصباح على مقعده الأمامى . كان يمكن أن يستمر هكذا إلى الأبد دون أن يقلقه الموت جوعا .

يقولـــون لـــه : خفها قليلا يا زغلول .

ويقول مطرقا : بالتأكيد يوجد ناس محترمون فى البلدة .

– أتظن من يدفع كثيرا يكون محترما ؟

– لا أقصد ذلك . المحترم يعرف قدر الخدمة التى أقدمها له . كثيرا ما قمت بتوصيل خواجات إلى الميناء بعد السهرة . يفتشون جيوبهم ولا يجدون سنتا . وماذا يفعلون ؟ أحدهم يقبلنى معتذرا ويمضى. وآخر يعطينى غليونه كذكرى . أنا لا أدخن .

الصدفة لعبت دورا فى تغيير حياته . كانت امرأة عبد السلام صاحب شادر الخشب بالبلدة فى زيارة أقارب لها بعد صلاة العشاء . فى عودتها اتخذت طريقها المعتاد ، ورأت زوجها يقف مع آخرين أمام أحد المحلات ولن يعجبه أبدا أن يراها تمر من جوارهم وربما اختلس أحدهم النظر إليها . هى ملتفة فى ملاءتها . غير أن البعض سيتعرفون عليها من الخادمة الصغيرة التى تمشى وراءها. مالت إلى أقرب حارة ، وكادت تصطدم بالحنطور فى العتمة . هى وقد رأته وسألت وعرفت أنه للإيجار استقر فى ذهنها أن تركبه يوما . كانت أول من استأجرته . ليلتها خلع زغلول ملابسه متواريا بالحنطور ونفضها بقوة ولبسها مرة أخرى ، ومسح حذاءه بقطعة قماش مبللة . وحلق ذقنه فى العتمة واقفا أمام المرآة المربعة المثبتة على جانب مقعد السائق بالحنطور . ابتعد خطوتين ونظر مرة أخيرة إلى الحنطور والحصان ، ثم صعد . جلس فى مهابة مستعيدا لحظات سعيدة مضت حين كان يأخذ بالحنطور دورة واسعة ليقف فى لحظة موازيا الرصيف أمام باب الفندق فى بورسعيد .

رن جرس الحنطور ، واستمر رنينه طول الطريق مخترقا سكون البلدة العميق ، وحين وصل إلى بيت عبد السلام صمت الجرس . رمق البيت الكبير وكان من دورين والسور والبوابة الحديدية ، ظل فى مكانه مشدود الكتفين .

جاءت امـرأة عبد السـلام ومعهـا امرأة أخـرى وصعدتا إلى الحنطور، وتكوم بناتها فى النافذة ينظرن . وظهر عبد السلام على درجات سلم البيت الرخامية . هو وقد أحس بأن وقفة العربة أمام بيته وضجتها تساوى الكثير قال لزغلول متوددا : – مساء الخير ياحاج .

زغلول لم تعجبه كلمة « حاج » . أحس أنها قذفت به إلى مستوى آخر من البشر . لم يلتفت إليه ، ورد التحية فى صوت خافت . صدم عبد السلام بفتور زغلول وعدم اهتمامه . وقف حائرا ويده فى جيب جلبابه . قال لنفسه إن الرجل – مهما يكن – غريب عن البلد ولا يعرف من يحدثه. وقال بلهجة آمرة :

– خذهما لمدة ساعة على الطريق الزراعى . وانتبه للسيارات . الدنيا ليل .

هذه المرة لم يوفق أيضا . وأخرج من جيبه حفنة من أوراق النقد جذب منها ورقة وأعاد الباقى إلى جيبه . خلال ذلك كان ينتظر أن يسمع كلمة أو صوتا من زغلول الذى ظل ساكنا لا يلتفت إليه وقال دون أن يستدير :

– نعم يامدام . تحت أمرك .

كادت المرأة المرافقة لامرأة عبد السلام أن تنفجر فى الضحك غير أن امرأة عبد السلام زغدتها وقالت :

– الطريق الزراعى لو سمحت .

رن الجرس عاليا ، وانطلقت العربة . أحس عبد السلام رغم ما لحقه من إهانة بالرضا ، واستدار ضاحكا ودس الورقة فى جيبه .

كانت حكاية . وأصبح اسم زغلول فى غمضة عين يتداول بين نساء العائلات في البلدة . حكت امرأة عبد السلام عن الرجل وتقديره للأصول وصمته وكيف أنه جعل زوجها لا يساوى شيئا . وانهالت الطلبات على زغلول . ونساء البيوت الكبيرة يخرجن ويعدن ويتنشقن الهواء مثل خلق الله . ويتزاورن فى أمان . ورجالهن استراحوا من القلق عليهن . وظل زغلول وفيا لأهل بلدته . كانوا الوحيدين من غير البيوت الكبيرة الذين يسمح لهم باستخدام الحنطور ودون مقابل . هم أيضا ما كانوا يلجأون إليه إلا للذهاب للمستشفى . كان يمر عليهم فى المدارس حيث يقيمون . حتى هؤلاء الذين وجدوا أعمالا فى البلدة واستطاعوا أن يستأجروا بيوتا كان يزورهم من حين لآخر .

وعندما توجه مسعد لاستئجار الحنطور تلقى الإجابة المعتادة من زغلول : « محجوز » . غير أن ما يشبه الالهام جعله يقول لزغلول إن امرأته بلدياته .

دق جرس الحنطور أمام البيت دقة واحدة . هى تقف فى الحوش ملتفة بملاءتها فى انتظاره . مسعد يلبس الجلباب الصوف الكشمير وبالطو الزفاف رغم الحر الشديد والكوفية اللامعة . قال لها إنه لا يستطيع أن يسير معها فى شوارع البلدة . فالرجال – حتى لو كانت المرأة ملتفة فى الملاءة – يحفظون الجزء العارى من ساقيها فى ذاكرتهم ويميزونها به من بين آلاف النسوة . الحارة تغص بالأولاد الذين أحاطوا بالحنطور . النسوة يقفن أمام البيوت . زغلول يجلس على مقعده ساكنا وكأنه يعرف أن الأولاد لن يجرؤوا على الاقتراب . مسعد قبل أن يصعد الحنطور صاح فى الأولاد صيحات متتالية ليبتعدوا .

تقهقر بهم الحنطور فى رشاقة ليخرج من الحارة الضيقة إلى حارة أكثر اتساعا . وطلب مسعد من زغلول أن يفتح الغطاء قليلا لأن الدنيا حر . هى وقد خجلت من طلبه - فربما أراد أن يراه الناس فى الحنطور - شدت الملاءة لتغطى رأسها . وكان أكثر ما تخشاه - وقد رأته يميل بكتفه إلى جانب الحنطور - أن يلقى بالتحية على من يعرفهم.

سألها زغلول وهم على الطريق الزراعى :

- من أى حى فى بورسعيد ؟

- التجارى .

- أى شارع ؟

ذكرت له اسم الشارع واسم أخيها ، ومحل الفول والفلافل الذى يملكونه فى نفس بيتهم .

الحنطور يسير بطيئا وقد مال الغطاء كله للوراء ، والطريق معتم . يبدو خاليا من المارة غير أنها كانت تفاجأ بهم على الجانبين لدى مرور السيارات .

قال زغلول : أعرف المحل . أوجعوابطنى من فولهم المسوس .

وضحك : وأين أخوك ؟

- فى المدرسة .

- أى مدرسة ؟

- المدرسة الكبيرة .

- لم أره هناك .

- يخرج الآن بقدرة فول على المحطة .



www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

ليلتها رفض زغلول أن يأخذ أجرا من مسعد . وعندما عرض عليها مسعد بعد أيام أن يستأجر الحنطور مرة أخرى . قالت إنها لا تريد الخروج .

هى تصعد إلى السطح . بعد أن يذهب فى النوم تضع الروب على كتفيها وتصعد . تستلقى على القش مغمضة العينين . السكون والعتمة الرقيقة . كم مر من الوقت حتى اكتشفت المكان . القش رطب يغوص بها . رائحته الناعمة . ينامون مبكرا . تغلق الأبواب والنوافذ عقب تناول العشاء . لم تألف المكان أبدا ، ولا اعتادت الحارة وأهلها . تقاوم دائما تسللهم إليها . حتى زوجها يبدو هو الآخر بعيدا . ترمقه أحيانا فى استغراب . جلسته الدائمة على الشلتة لساعات طويلة وعيناه تتابعان حركتها فى صمت . هى وقد اعتادت التنقل من بلدة لبلدة طوال الشهور الأخيرة كان يراودها الشعور بأنها تقضى الآن فترة انتظار أخرى ، كانوا يتحركون فى مجموعات صغيرة يستأجرون عربات اللورى . تسير العربات واحدة وراء الأخرى . يتفرقون ليلتقوا بعد أيام فى بلدة جديدة . رأت العديد من القرى والمدن الصغيرة . يطرقون نفس الأماكن . فناء المستشفى . ساحة الجامع . المدارس . تتشابه فى كل القرى التى مروا بها . لا تخطئها العين . خارج بيوت البلدة . على الترعة أو النهر . لونها الأصفر الباهت . آثار أمطار شديدة على الجدران جرفت ما فوق السطح من أتربة . حولها أشجار صفصاف عالية ، وعجائز يجلسون فى ظلها بسراويلهم الطويلة يتلفعون بجلابيبهم ويمسكون العصى لطرد الكلاب التى تتشمم حولهم . سيقانهم الممدودة مثل عيدان الحطب . تسرى بينهم حركة خفيفة حين يرونهم قادمين ، ويشيرون لهم بالعصى إلى داخل المبنى ثم يعودون إلى اطراقهم .

يحطون متاعهم قريبا من بوابة المبنى ويقفون فى الظل . يمضى أخوها والرجال إلى الداخل . يقول أخوها قبل أن يدخل :

– المدرسة هى الأنسب . لن نرضى بغيرها . معنا نساء ولابد من حجرات . الأماكن الأخرى مفتوحة .

يوافقه الآخرون .

المبنى الذى يدخلونه لادارة أو تنظيم . يرفرف على واجهته علمان متشابهان . موظفون يجلسون خلف النوافذ المفتوحة . تلاميذ المدرسة وكأنما كانوا فى انتظارهم ، بمجرد أن رأوهم قادمين جروا إلى البيوت يجمعون أرغفة العيش والملابس والأغطية . يعودون فى موكب . يضعون ما جمعوه أمامهم لاهثين ويقفون غير بعيد ينظرون إليهم ويتهامسون . يتقدم أحدهم :

– رأيتم الدبابات ؟

– آه رأيناها .

يعود إلى زملائه يكتم زهوه . هم بملابس المدرسة رغم اغلاق المدارس . يظلون قريبا منهم وكأنما ينتظرون أن يطلبوا شيئا . يخرج أخوها والرجال من المبنى ، معهم آخرون . أحدهم يبدو أنه الرئيس يضع منديلا أبيض فوق ياقة القميص . يقول :

– كلكم تطلبون المدارس . لم يعد بها مكان واحد . لا داعى أن تقولوا شيئا . أنا مقدر ظروفكم وكل المتاعب التى تواجهكم . الكثيرون يأتون . نحن نشكل الخط الثانى . المستشفى مكدس حتى طرقاته بالعائلات . ألا توجد فى بيوت هنا يرضى أصحابها بتأجيرها ؟

ينظر إلى موظفيه . يبادلونه النظر فى صمت . أخوها يتأهب للاعتراض على التأجير وحين يجدهم صامتين يصمت هو أيضا . هم

وقد خرجوا من البوابة يتقدم الرئيس منهم . يتأملهم قليلا ويتأمل متاعهم. يقول :

– أنتم أفضل حالا من الآخرين . معكم ملابس وأغطية وأطفال قليلون . إذا كان لكم أقارب بالقرب منا ..

ينحنى أخوها على حقيبته الضخمة . هى تحمل ربطة اللحاف وداخله ثلاث بطاطين على رأسها . يبدأون جولة أخرى .

كانوا بعد أن استقروا فى المدرسة يتبادلون الزيارات مع الآخرين فى المدارس القريبة والقرى المجاورة ويتبادلون المواد الغذائية ، وعندما يستطيع بعضهم أن يتسللوا إلى بور سعيد كانوا يعطونهم مفتاح البيت ليأتوهم بما يريدون من أشياء . يتحركون دائما دون أن يسببوا ازعاجا لأحد . لم يأتوا لزيارتها بعد الزواج إلا مرة واحدة . يخشون ألا يستريح زوجها لمجيئهم . ينتقل أخوها لبلدة أخرى بعد زواجها بشهور. تذهب فى الليل لتوديعهم . امرأة أخيها تبكى . هى لم تبكِ . صامتة تنظر إليهم، يجمعون أشياءهم فى الحقيبة والسبت . يقول أخوها إن البلدة تبعد ساعة ونصف بالقطار ، وإنهم استأجروا بيتا هناك بحوش واسع به مضخة ماء . وبعد أن أصبح لهم بيت سيزورونها وتأتى هى ومسعد لزيارتهم . لم يدهشها رحليهم . تعرف إن هذا كان سيحدث يوما . يقول أخوها إن البلدة ملتقى ثلاثة خطوط سكك حديدية وسيفتح مطعما صغيراً على المحطة للفول والفلافل . ذهبوا . لم ترهم من يومها . الكثيرون ممن عرفتهم فى المدرسة رحلوا أيضا إلى قرى قريبة . أرسلوا لها يدعونها لزيارتهم . هى لم تعد ترغب فى الخروج . تنتهى الحرب يوما ، ويعود الجميع إلى مدنهم . هم ينتظرون . يتحركون هنا وهناك وينتظرون . وهى ؟ كأنما توقفت حركتها . تستغرقها عادات تحافظ

عليها بشدة ، وتحس بالضيق طول اليوم إذا أهملتها . تأخذ حمامها فى الصباح بعد خروج مسعد . تجلس فى الشمس داخل حجرة النوم تمشط شعرها . تتزين أمام المرآة . تعرى كتفيها لأشعة الشمس بعض الوقت . تحك قدميها بالحجر كل ثلاثة أيام . هى وقد انتهت من كل شىء . تغلق على نفسها باب الحجرة . الضوء الأزرق الناعم . تلبس أفضل قمصان نومها وتجلس على مقعد التسريحة تقرأ المجلة وتسمع الراديو . فى الليل تصعد إلى السطح . السطح مسوّر بارتفاع متر . تستطيع أن ترقد على القش براحتها . نقلت بعض الأشياء معها . طعام خفيف . وابور سبرتو . كوب . شاى وسكر . وضعتها فى ركن السور بعيدا عن تيارات الهواء . معها الراديو الصغير . سماعتاه على أذنيها . تعجبها أغانى أم كلثوم وعبد الحليم حافظ . عيناها عالقتان بقطع سحب متألقة البياض تنساب خفيفا . تستغرقها ذكريات بعيدة . تكتشف فى كل مرة كم حياتها تعسة . أبوها الذى لم تره أبدا . أمها تموت فى الحجرة . لا تذكر شيئا من ملامحها . كانت فى الخامسة . أخرجوها وأغلقوا الباب. نسوة كثيرات يدخلن الحجرة . هى تقف فى الصالة . أخوها يأتى ويخرج . تهبط درجات السلم إلى الشارع . يدهشها أن أحدا لا يصيح بها أن تعود . تظل واقفة على الرصيف . أخوها يبيع أثاث البيت . يأتى بأثاث جديد وامرأة لم ترها من قبل . لها الآن حجرة وسرير صغير تنام فيه بمفردها بعد أن كانت تندس فى حضن أمها .

هى فرحة بالسرير تزينه بالصور والورق الملون . شرفة البيت الخشبية حيث تحتفظ فى الركن بلعبها . تمضى بجوارها ساعات طويلة تحدثها وتستمع إليها. تتعلق بنوافذ الشرفة حين تسمع صياح أخيها فى

الشارع وتراه واقفا أمام المحل أسفل الشرفة ومريلة بلاستيك طويلة معلقة برقبته . سنوات تمضى . تدخل المدرسة وتخرج منها . أخوها أخرجها بعد الابتدائية :

- وما حاجتها للشهادة !

تستقر فى البيت . ابنة أخيها تأتى لتقيم معها فى الحجرة . تزعجها بحكاياتها التى لا تنتهى وتحتل مكانها فى الشرفة وتنفض التراب عن لعبها القديمة وتسأل عن أسمائها . تحس أن العمر تقدم بها كثيرا . الثانية والعشرون . قليلا ما تخرج إلى الشارع . عادة ما يكون ذلك مع امرأة أخيها . العيون تحدق إليها أثناء سيرها . تشترى حذاء بكعب مرتفع . وجونلة ضيقة وبلوزة بلون أحمر من قماش خفيف . الدهشة فى عينى امرأة أخيها . أخوها أيضا نظر إليها . لم يقل أحدهما شيئا . هى طويلة ممتلئة . ردفاها مشدودان . ساقاها جميلتان . بشرتهما ناعمة . تزيل عنهما الشعر الخفيف كل أسبوعين . تخرج عصر كل يوم بحجة أن تشترى شيئا . تسأم الخروج والعيون التى تلاحقها . تظل فى البيت أياما طويلة لا ترى الشارع . أحيانا تغلق على نفسها باب الحجرة وتنام يوما بطوله . تعود مرة أخرى إلى الخروج. تضع المساحيق على وجهها . شفتاها بلون شديد الاحمرار . والجونلة قصيرة فوق الركبة . يقف أخوها يوما بباب حجرتها وينظر إليها ضاحكا ويعلن الخبر . حلاق . صالونه فى حى الأفرنج . فى الشارع الموازى للميناء . لو أراد أن يبيعه لجاءه بآلاف كثيرة لموقعه . زبائنه من ضباط السفن والبحارة الذين يمضون ساعات بالمدينة وأحيانا ليلة أو ليلتين . يدفعون له بعملة بلادهم . وربما نفس الأجر هناك . يجيد الكثير

من اللغات . يقيم مع أمه وأخوته فى البيت المقابل لهم . كانت تراه كثيرا ولا تلتفت إليه . نحيف . خفيف الحركة . عيناه شديدتا السواد . يمشط شعره الأسود اللامع للوراء . قال لها إنه منذ سنوات وهو يتمنى التقدم لها . قالت له :

– وما أخرك ؟

– كنت أخشى أن ترفضينى .

وقال إن كثيرين يعرفهم أخافهم جمالها ، يقولون إن حظه سيء الذى يتزوجك فمثلك يسبب قلقا دائما للرجل ، ويتساءلون عن الرجل الذى يمكن أن يملأ عينك . يحدثها وكأنها غير المقصودة بالكلام . شديد الوداعة . نبرة صوته واحدة بلا انفعال . لم تره أبدا منفعلا . كأن ما يقوله لا أهمية له .

سألته : وأنت ؟

– أنا ؟ انتظرت . ولما لم يتقدم أحد لك تقدمت .

يداه صغيرتان نظيفتان يمسحهما من حين لآخر بمنديل .

هى يوم عقد قرانها . حفل صغير اقتصر على أهليهما . يجلسان فى الشرفة وحدهما بعيدا عن الضجة . يمسك يدها . تنظر إليه . يقول لها إنه لا يريدها أن تخرج وحدها بعد ذلك ، وألا تلبس الجونلة القصيرة الضيقة خاصة السوداء . هى لم تتحمس له أبدا . قالت لامرأة أخيها إنه بلا طعم أو لون . وضحكت امرأة أخيها قائلة إن كل الرجال فى هذا الزمن بلا طعم أو لون .

هو يبحث عن شقة قريبة من عمله . أخوها يعد جهازها . أخباره بدأت تتسرب إليها . يحكون أيضا لأخيها . نساء لا تعرفهن من

الجيران يأتين إلى البيت ويهمسن لها . هى من الكلام الذى سمعته تملكها الرعب . أخوها يضرب كفا بكف . يقول إن له سنوات طويلة فى الحى ولا يعلم شيئا مما يقولونه . قواد .

يقول أخوها : لم يبد عليه أبدا أنه كذلك .

وتقول امرأته : وكيف تريده أن يبدو ؟

– طول عمره يمشى فى حاله . لم نسمع له صوتا أبدا . ولم ينظر لواحدة فى الحى نظرة بطالة .

بحّارة السفن يعرفون طريقهم إلى المحل ، وكأن هناك فى الميناء من يرشدهم . ثلاث عربات حنطور تقف دائما بامتداد الرصيف أمام المحل . بعد أن يقص شعر الواحد منهم ويحلق ذقنه يقدم له كهدية من المحل زجاجة كونياك صغيرة بطول الاصبع وحبة جوزة الطيب وينصحه أن يمضغ الحبة قبل نصف ساعة . وبعد أن يستفسر منه عن المواصفات المطلوبة يشير إلى حنطور من الثلاثة . أما الأماكن التى يتعامل معها فقد ظلت سرا .

أخذ أخوها رجلين من الحى وتوجها فى المساء إلى بيته ورافقهم أحد الصبية الذى طرد من صالون الحلاقة منذ شهور حتى لا يكون هناك مجال للانكار .

قالوا له إنهم جاءوا للطلاق .

نظر إليهم بعينيه الوديعتين ولم يسأل عن شىء . وقال :

– تحت أمركم .

هم وقد أعدوا أنفسهم لكلام كثير لم يعجبهم ذلك . أرسلوا الصبى لاحضار المأذون ورمى أخوها الشبكة على المنضدة : اسورتين ثعبان وأربع غوايش وخاتما من الذهب . وقال :

– أنت أسأت إلينا كثيرا . المفروض ألا نعيد لك الشبكة . لكننا لا نريدها . نقودك النجسة أنت تعرف مصدرها .

أنصت إليهم هادئا ويداه داخل جيبى روب أزرق يرتديه فوق البنطلون . انهالوا عليه بكلام عنيف . قال مبديا قليلا من الدهشة :

– هم أجانب ياعمى .

– عمك ؟ . نطقها أخوها كما لو أنه نالته صفعة .

سرعان ماعاد إليه فتوره . وقال إنه لا يؤذى أحدا ولا يخالف القانون .

لم ينتبهوا لكلمته إلا بعد أن أصبحوا فى الشارع . تساءل أخوها :

– أى قانون ؟ ماذا يقصد ؟

ظل مقيما فى الحى . تراه أحيانا فى الشارع . تحس به وقت الظهيرة واقفا خلف شيش النافذة المغلق حين تكون منحنية على حاجز شرفتهم .

المرة الوحيدة التى تبادلا فيها كلاما كان بعد عامين . يوم رحيلهم . هى تقف بجوار متاعهم على شاطىء الرسوة ، أخوها يبحث عن مكان بأحد المراكب . الشاطىء مزدحم . العتمة لا تسمح برؤية شىء فى البحيرة . يتلاصقون وقد اقتربوا كثيرا من حافة الشاطىء .

رغوة المياه العكرة تحت قدميها . موج خفيف يضرب جانب الرصيف الأسمنتى ضربات مكتومة كدقات طبل بعيد . الجو لزج والعرق يسيل تحت ابطيها . منديل رأسها مبلل بالرطوبة . الضجة شديدة . صراخ أطفال ونساء تصيح وتلطم ورجال يشتمون نساءهم . مركب وحيدة طوت شراعها تتأرجح قرب الشاطىء ، قالوا إن بها عطبا . رجال يزيحون الناس من حين لآخر ويتقدمون إلى الحافة يحدقون فى عتمة البحيرة ، يلقون بسؤالهم دون أن ينتظروا جوابا :

– ألم تعد المراكب ؟

عربات الكارو مازالت تأتى بآخرين . تسقطهم بمتاعهم وتمضى . أخوها يقف مع رجال فوق شريط من الأرض يمتد قليلا داخل البحيرة . قال لها إن المراكب تبحر إما إلى دمياط أو المطرية . قالت امرأته :

– نذهب إلى دمياط .

– دمياط أو المطرية كله زفت .

– دمياط بعيدة عن ضرب النار .

– المكان الذى نجده فى أية مركب .

قبل أن يغادروا البيت ناداهما . أراهما الحزام الجلدى ذا الجيوب العريضة حيث وضع مصاغهما والنقود وحجة البيت والمحل وقسيمة زواجه وشهادات الميلاد . وقال :

– لو حدث لى شىء فأنتما تعرفان المكان .

ربط الحزام حول بطنه العارية :

– لا تتحدثا عنه لأى مخلوق .

هى واقفة وسط الضجة لا تشعر بشىء . لا تصدق بعد أنهم تركوا البيت ويرحلون . وكانت تستعيد منظر حجرتها التى تركتها مبعثرة حين أحست أنها لمحت عينين تحدقان إليها . عادت ببصرها إلى الزحام وراءها . الشبورة تنساب فوق الوجوه أشبه بدخان خفيف. رأته . تبادلا النظر لحظة . قبل أن تستدير لمحته يتقدم نحوها . وقف صامتا بجوارها ينظر إلى المياه . سألها بصوته الوديع :

– أين ستذهبون ؟

– لا أعرف .

أفزعها أن يقف بجوارها ويحدثها . عندما بدا لها أن تبتعد همس:

– انتظرى لحظة .

هو أيضا قلق ينظر حوله . همس :

– أترينهم ؟ هناك .

نظرت إلى حيث ينظر . بعض الرجال يجلسون فوق تبة مطلة على البحيرة . ظهورهم إلى عجلة مدفع قديم مائل على أحد جانبيه وفوهة ماسورته تلامس الأرض . كانوا يدخنون الشيشة . همس :

– يدبرون شيئا .

– لمن ؟

– لى .

– وما أدراك ؟

- هم يقولون نغسل عارنا . أحدهم الذى يلبس سترة همس بها لى وهم يمرون بجوارى .

صمت ، ثم همس :

- يومان وأنا هنا . سمحوا لأمى واخواتى بالصعود لمركب متجهة إلى دمياط وقالوا لى : انتظر المركب التالية .

همس مرة أخرى :

- أكثر من مركب أبحرت . كل مرة يقولون انتظر التالية . هم يرتبون شيئا .

- لم لا تجرب طريقا آخر ؟

يتأملها لحظة يهمس :

- ربما مركب معينة . لا أظنهم يفعلون شيئا على الشاطىء . سأركبها ونرى . يحدق للمياه تحت قدميه . بجواره حقيبة متوسطة من القماش ربطت إلى جانبها بطانية خفيفة .

- لم أقصد أن أسىء إليك كما قال أخوك . هو لم يفهم . آخر شىء يخطر لى . لم أحب أحدا فى حياتى غيرك . سنوات طويلة .

استدار فجأة حاملا حقيبته وابتعد . سارت هى أيضا إلى حيث تقف امرأة أخيها . وفيما بعد وكانوا يقضون ليلتهم بساحة جامع فى إحدى القرى ، نبهتها امرأة أخيها بلكزة من كوعها . سمعت الرجال وكانوا يرقدون غير بعيد عنهن يحكون كيف انتشلت مركب جثته الطافية فى البحيرة .

هى والنساء فى قاع المركب . الرجال تكوموا على المؤخرة والجانبين . أبحرت المركب بعد منتصف الليل بقليل . نسمة خفيفة تدفع

المركب فى بطء . تستيقظ من غفوتها على أصوات كثيرة حولها . المركب جنحت إلى مياه ضحلة والرجال يدفعونها . يصيحون بهن لينزلن من المركب . هى لا ترى شيئا فى العتمة . تنزلق على جانب المركب . تغوص قدماها فى طين لزج تكاد تصرخ من ملمسه . دفعوا المركب حتى أخرجوها من المياه الضحلة ، ورفعهن الرجال إلى سطح المركب . تكومن فى القاع ورمى الرجال عليهن مشمعا كبيرا . تخلع ملابسها كالأخريات. تعصرها من المياه . النسوة متلاصقات لضيق المكان . تخلع القطعة من ملابسها وتعصرها وتضعها تحت ساقها . بعدها رفعوا المشمع . الملابس المبللة أراحتها كثيرا . انتعشت . أراحت ذراعيهـا على جـانب المركب تنظر إلى الأفق وقـد أخـــذ يتلون بضــوء الفجر .

يستقرون فى المدرسة . يقول أخوها إن المدن تكلف كثيرا فى المعيشة وإن غربتهم قد تمتد لسنوات . يمضى ساعات يتجول فى البلدة. هم بجوار متاعهم فى طرقة المدرسة ينتظرونه . يعود . يقول إن البلدة لا بأس بها . يستطيع أن يبدأ بقدرة فول على عربة . لم يكن بالبلدة غير بائعين اثنين ، تحدث معهما ووافقا على أن يقف بعربته على المحطة .

كان من نصيبهم نصف حجرة دراسية ، يفصله عن النصف الآخر حاجز خشبى غير مثبت يترك فراغا من الجانبين ويرتفع عن الأرض بمقدار شبر . يسمح بمرور القطط وطفل يحبو آتيا من النصف الآخر يحدق فيهم لحظة ثم يعود . أدراج التلاميذ مصفوفة فوق بعضها فى طرقات المدرسة ، سارى العلم فى منتصف الحوش دون َعلم . سبورة الفصل معلقة على الحائط فى نصف حجرتهم . كتب بالطباشير

الملون بخط كبير فى منتصفها « الموت للغزاة » .

قال أخوها : حصة تاريخ .

قالت : حصة تعبير .

الطفل الذى يزحف من تحت الحاجز الخشبى يأتى مع صلاة العصر . الوقت الذى تفتح فيه أبواب الحجرات بعد تناول الغداء . عائلته تقيم فى الحجرةالدراسية الأخيرة بالطرقة . يقطع مسافة طويلة وقد أعجبه المرور من تحت الحاجز الخشبى . يرفع رأسه محدقا إليها . وجهه الأبيض المتسخ يوشك على الضحك . حين تمد يدها إليه يطلق صيحة ويزحف عائدا . عادة يكون عاريا . أحيانا تلبسه أمه فانلة لأبيه بدون كم . كانت تعوق زحفه وتسببت فى موته . ليلتها كان يزحف على جانب الطرقة المطل على الحوش وداست ركبتاه طرف الفانلة الواسعة . حاول الخروج من المأزق كما اعتاد بالسقوط على جانبه ، غير أنه هذه المرة هوى من الطرقة المرتفعة على حجر كان فى الحوش . لم يحس به أحد ، ولم تنتبه أمه إلى غيابه إلا بعد ساعة . هى وقد فزعت لموته وبكت طويلا نقلت فرشتها من المكان الذى كان يجلس فيه كلما جاء إلى جوار الحاجز . حصيرة فوقها بطانية . أخوها وامرأته ينامان فى الطرف الآخر . ابنة أخيها تنام فى المساحة التى تفصلها عنهما . هى رغما عنها تقضى وقتا طويلا من الليل منتبهة لحركتهما وقد تملكها فضول لمعرفة إن كانا سينامان معا . غير أنها كانت تسمع صوت تنفسهما المنتظم مع بداية الليل . الحجرة لها باب واحد يقع فى النصف الآخر حيث يقيم ثلاثة أخوة . امرأة فى الخمسين لا تبدو كعانس ، ثدياها كبيران متهدلان ، وردفاها عريضان . أخواها أكبر قليلا منها . يبدوان

كتوأم ، لهما نفس الجسد المتراخى وتقاطيع الوجه الذابلة ، ينصتان لحدثهما وعيونهما للأرض ، كلماتهما قليلة وفى صوت خافت . يلبسان عادة نفس الملابس . جلباب من الصوف الرمادى الخفيف وبالطو كاكى باهت اللون . قد يتغير جلباب أحدهما غير أن البالطو لا يتغير . وطوال مدة اقامتها فى المدرسة لم تعرف شيئا عنهم سوى أنهم من السويس . لم يحكوا عن شىء أبدا . يخرج الرجلان فى الصباح ويعودان مع المغرب . وفى الليل يسحبون حصيرة إلى الطرقة الخارجية ويجلسون . المرأة تصنع القهوة على وابور سبرتو . صامتة دائما . أخواها يتحدثان قليلا عما قرآه فى الصحف وما بلغهما من أخبار الحرب . حين تسمعهما تظنهما شخصين آخرين . عصبيان يتبادلان شتائم مبتذلة . وقد يرفس أحدهما الآخر ويوشكان على الشجار غير أن صوتهمايظل دائما خافتا . أحيانا يبدو لها من مجرى حديثهما أنه لا يوجد ما يستدعى هذا النوع من الشتائم كما لو أنهما يستمتعان بذلك .

يقول أحدهما : الجرائد تكذب .

يقول آخر : الجرائد لا تكذب .

– إذا لم تستطع تمييز كذبها فأنت ابن قحبة .

– الجرائد تكذب . السلطة تكذب . الناس تكذب . اسكت .

وتسمع صوت الرفسة المكتوم .

– السلطة تعطى معلومات كاذبة للجرائد فتنشرها . يقرؤها أبناء الكلاب أمثالك ويصدقونها .

فى مرة أخرى قال أحدهما :

– ملعونة القناة . سبب كل مصائبنا . قناة بنت وسخة .

– ليست القناة .

– كل مرة يأتون ويضربوننا . ويرسلون طائراتهم .

– جاءوا لضرب الثورة . الكل يقول ذلك . لو سمعت كلامى ولم نترك البيت .

– أى ثورة ؟ التى يقولونها للتلاميذ فى المدارس .

– ولماذا ياروح أمك وضعوا مدافعهم على ضفة القناة ؟

فى كل مرة تريد أن تخرج تدق خفيفا على الحاجز . ويأتى الصوت :

– تفضلوا .

تزيح الحاجز جانبا وتمضى إلى الباب دون أن تلتفت إليهم .

فى المدرسة دورتا مياه احداهما للرجال والأخرى للنساء . تحمل غيارها والفوطة تحت ابطها ، ووابور الجاز وإناء تسخين الماء بيدها . عادة يكون ذلك فى الليل حين يخف الضغط على دورة المياه . تسير فى الطرقة . الكثيرون يجلسون أمام الحجرات المضيئة . يصمتون أثناء مرورها . تحس من الأشياء التى تحملها أن العيون تعريها من ملابسها . هى ترقد بجانب الحاجز الخشبى . تنصت قليلا ثم تغفو . توقظها حركة خفيفة بجانبها . تنفض الملاءة فوقها . قبل أن تستغرق فى النوم تحس بالنبش مرة أخرى . انتبهت للحركة بجوارها . يد ممتدة من تحت الحاجز لمست جسدها المغطى بالملاءة ، تستقر بجوارها تتحسس الأرض فى هدوء . هى وقد أخذتها المفاجأة تحدق إليها والرعشة تسرى

فى جسدها . فى لحظة تحس بها على فخذها العارى تحت الملاءة . تكتم صرختها وتزحف مبتعدة . اليد تتبعها وتمسك بطرف الملاءة . تدور المعركة فى صمت . العتمة تجعلها تلهث . تحس بالملاءة تسحب من فوقها تفزعها رؤية ساقها عارية تتشبث بالملاءة . يدها الأخرى تمسك باليد المجهولة تدفعها نحو الحاجز . اليد خشنة . تجاعيدها قوية تستسلم لها . قبل أن تختفى تطبق على يدها وتضغطها خفيفا .

هى يقظة وعيناها على الفراغ تحت الحاجز . تحس جسدها ثقيلا .

فى الصباح اجتاحها شعور بالغضب عندما تذكرت ما حدث . لم تجد خلف الحاجز غير المرأة تلتقط الشوائب من العدس على عتبة الباب. سمعت صوتيهما وقت المغرب . كانا قادمين من الخارج وجلسا فى الطرقة أمام الباب . انتظرت قليلا حتى اختفت الرجفة من جسدها ثم خرجت . وقفت بالباب . جمع كل منهما ساقيه دون أن يلتفت وتوقف حديثهما . ظلت واقفة . نظراتها تنتقل من وجه إلى وجه . نفس التعبير المتخاذل ، والفم المتهدل الخشن . أيهما ؟ تسير أمامهما بخطوات متمهلة متحدية . لا تبتعد كثيرا . تعود . هما صامتان وكأنما تجمدا . لايرفعان نظرهما إليها . يداهما المسترخيتان فوق ركبتيهما قاتمتا اللون، أصابعهما غليظة . دخلت إلى مكانهم وقد هدأت . أدهشتها مشاعرها المضطربة ليلة أمس .

فى الليل لم تغير مكانها . وضعت بجوارها فردة شبشب وانتظرت. رقدت وقتا طويلا على ظهرها ملتفة بالملاءة مشدودة الجسد. سمعت آذان الفجر يأتى من بعيد . كانت تغفو . نظرت مرة أخيرة . الضوء الرمادى تحت الحاجز ، والبلاط المتآكل المتسخ .

فى الصباح أحست بجسدها متعبا . ظلت راقدة . نامت حتى العصر . سمعت صوتيهما بعد ذلك عندما جاءا وقت المغرب وجلسا فى الطرقة . تحس بالعرق جف على جسدها . انتعشت بعد الاستحمام . عادت وشعرها مبلل والفوطة على كتفها . لم تنظر إليهما . ألحت على امرأة أخيها لتخرجا تزوران بعض معارفهما فى المدرسة الأخرى . عادتا فى وقت متأخر . رأتهما جالسين فى الضوء الخافت أمام الباب ، أختهما نائمة فى الداخل بجوار الحائط .

قالت لامرأة أخيها إنها نامت كثيرا بالنهار . جلستا فى ركن تتحدثان فى همس . أخوها مستغرق فى النوم . البنت نامت ورأسها على رجل أمها . سمعت صوت الباب عندما أغلق وخطواتهما الحذرة خلف الحاجز . سعل أحدهما خفيفا ، ثم أطفأ المصباح عندهم . امرأة أخيها أطفأت المصباح أيضا . تسللت كل منهما إلى مكانها . بحثت عن الملاءة والتفت بها . وضعت فردة الشبشب بجوارها ورقدت .

هى مستلقية على ظهرها . ترى بجانب عينها اليد فى الضوء الرمادى تزحف مقتربة من يدها . تتحسسها خفيفا اصبعا اصبعا ثم تجذبها فى بطء . ترى يدها تمر من تحت الحاجز . شفتان دافئتان مبللتان تلمسان فى رفق كفها . ذقنه الخشنة تستقر فى يدها . تعود اليد تتحسس وجهها وشفتيها . تضغط صدرها خفيفا . تزحف إلى بطنها . تحس جفافا فى حلقها . تكتم آهة تكاد تفلت منها . لم تشعر بألم . تنطوى مبتعدة وظهرها للحاجز . يفزعها استسلامها . اليد تستقر عل ردفها . امرأة أخيها حين رأت بقع الدم على ثيابها ظنتها الدورة الشهرية . قالت :

– غيرى ملابسك .

تجلس فى الركن تعيد ترتيب حقيبتها . تخرج عروسا صغيرة كل ما تبقى سليما من لعبها . تتأملها قليلا ثم تعيدها للحقيبة .

أيام طويلة لم تغادر نصف الحجرة . نقلت فرشتها إلى جوار الحائط . كادت تقىء فى الليلة الأولى حين رأت اليد المجهولة تمتد فى الضوءالرمادى من تحت الحاجز تتحسس مكانها السابق . تستقر هناك فوق البلاط العارى . ضخمة منفرجة الأصابع . الجلد قاتم منتفخ عند المفاصل . ذراعها شديدة النحول . تنثنى مرتكزة على أطراف الأصابع ثم تسقط رخوة متهالكة .هى في رقدتها ملتصقة بالحائط . دموعها تنهمر دون صوت . كل ليلة . فى نفس الموعد تراها تزحف من تحت الحاجز وتمسح البلاط ثم تستقر ساكنة كظل قاتم . عيناها عالقتان بها حتى تختفى .

تغوص فى القش فوق السطح . تحس ملمسه الرطب على ذراعيها العاريتين . السماء عكرة بالسحب . اعتادت النظر إلى السماء . ترقب قطع السحب فى حركتها . القطع الناصعة البياض عادة ما تكون فى الأطراف البعيدة . ثابتة تنفث بخارا رقيقا . القطع الرمادية تزحف على مهل فى تحفز . القطع الأخرى المعتمة لم ترها أبدا فى شكل محدد تنساب مثل سائل لزج . الحارة تغط فى نوم ثقيل . أصوات الليل التى تسمعها دائما . شخير زوجها تميزه من بين أصوات شخير الجيران . غليظ يمتد أطول من الأصوات الأخرى . ينامون كالقتلى . حين تميل على سور السطح من جهة النافذة تستطيع أن تسمع غمغمته حين يغير من رقدته. عشرة شهور عمر زواجها . لم يحس أبدا أنها تغادر

الفراش وتصعد إلى السطح . تعود إلى الحجرة قبل الفجر موعد ذهابه للمرحاض .

تعمـل القهوة عنـد ركن السـور . ترى عامر يذهب ويأتى فى الحـارة . يقف رافعا وجهه . تبتعـد عن السـور . قـال لهـا إنه من حين لآخـر كان يمشى حـول البيت حتى رآهـا . وبعدها أخـذ يأتى كل ليلة . المـرة الأولى التى رأته فيهـا يوم جاء مـع أبيه لتهنئة مسعد بالزواج . كانت تحمـل صينية عليهـا كعـك وشـربات ودقت بـاب حجـرة الضيوف خفيفا وانتظـرت . وبدلا من ظهـور مسعـد فوجئـت به واقـفا أمامها . تنـاول منهـا الصينية محدقـا فى وجههـا . مسعد لم يعجبـه ذلك . كان يحاول النهوض من مكانه ثم رأى عامر فى قفزة واحـدة قـد بلغ البـاب . حين عبّـر لهـا عن ضيقه مزمجرا . قالت له إنهـا لم تشعر بأى حـرج فالولد مثـل البنت . انفجـر فى الضحك حتى انتابه السعال . وقال إن أباه بركات اشتكى لطوب الأرض من الولد الذى ذهب للجامعة وعاد مخنثا . يضربه بسبب وبلا سبب فى المحل . فى المقهى . فى الشارع . والولد ينال الكف على وجهه ويمضى . هى لم تبالغ . شعره الكستنائى كثيف مموج . تقاطيع وجهه الأملس دقيقة ناعمة . كثير الصمت . لا يبادر أحدا بالكلام . عيناه الواسعتان من شدة سوادهما تبدوان كالمكحولتين . تحدقان فى وجه محدثه ، ثم فى لحظة تطل منهما نظرة تائهة وكأنما لم يعد ينصت . يلبس بيچامة من الحرير مهدلة عليه تكشف عن نحوله الشديد ، ومنديل أزرق على هيئة مثلث بجيبها العلوى. تفوح منه رائحة العطر . تنقصه بعض العناية. فهو يبدو متربا ويلبس حذاء بدون شراب ، وطرفى بنطلون البيچامة يلمسان

الأرض ، يدوس عليهما بكعبى حذائه . تهدله غير منفر . يثير الشفقة .

قال لها مسعد إن بيت بركات يبعد مسافة حارتين . كان عامر وهو طفل يحبو فى عز القيلولة ليأتى إليه . يدفع الباب الخارجى الموارب وينزلق على العتبة ويعبر الحوش . ويكون راقداعلى السرير ويسمعه بمدخل الحجرة يناديه :

– اس . اس .

يتصنع النوم . ويراه يمضى مباشرة إلى درج البوفيه حيث يحتفظ بالملبس . وحين يفشل فى سحب الدرج يأتى إليه . يقبض على صدغه ويهزه . ركبتاه وقدماه دامية . وجهه مبلل بالعرق والتراب . أمه عجزت عن منعه من المجىء إليه – يقول ذلك مزهوا – كان يبكى ويصرخ حتى تفتح له الباب . اشترى له ملابس واحتفظ بها عنده . حين يأتى يحمله إلى الطست ، ينظفه ويعالج تسلخات ركبتيه وقدميه ويبقيه عنده يوما أو يومين . ينام بجواره على السرير ، وتنام امرأته على الأرض ، وفى الليل حين يبلل نفسه يغير له ملابسه . وحين يأتى أبوه ليأخذه يبكى الولد ويرفس بقدميه ، ويغضب أبوه ويضربه صفعات متتالية على مؤخرته . يضحك مسعد متعجبا .

المرة الثانية جاء مع أبيه أيضا . تحت ابطه مجلتان . قال لمسعد سأعطيهما لخالتى سعدية . وقبل أن يجيبه مسعد خرجْ إلى الحوش وصفق بيديه مناديا :

– خاله سعدية . أنا عامر .

وقال بركات : الولد أهبل لا يراعى أى حرمة .

قال مسعد : بيته يابركات . ابنى .

- تربيتك آه نعم . ويخيب لمن ؟

رأته واقفا بباب الحجرة مبهورا بالستائر الزرقاء . أعطاها

المجلتين :

- عمى مسعد يقول إنك تقرئين الجرائد والمجلات .

قلب فى رزمة المجلات على التسريحة :

- نجوم السينما والمجتمع . والحوادث الدامية . هذه - وأشار إلى مجلتيه - شىء آخر . ستعجبك .

قالها فى حسم وخرج .

ليلتها طلب مسعد أن يرى المجلتين . هو الذى لا يعرف القراءة تصفحهما . وقال فى دهشة : لا يوجد بهما أى صور ؟

- مجلات أدبية .

نظر إليها مستفهما . قالت :

- أشعار وقصص ومقالات .

- ستقرئينها ؟

- لا أعرف . المجلات التى أشتريها دمها خفيف .

يمر من يوم لآخر على مسعد فى المحل . يساعده . هو الذى يعانى من الذهاب إلى محل أبيه . يجلس معه . يشكو له عنف أبيه .

يأتى به مسعد أحيانا للغداء . يجلسون معا حول الطبلية . يخفض عينيه ولا يكاد يكلمها . غير أنها تحس به يرقب كل حركة تقوم بها . يحكى مسعد عن طفولة عامر وصباه ويضحك. يكشف عامر عن كتفه وينحنى.

يحدق مسعد متحسسا الخطوط الحمراء المنتفخة من ضربات الخيزرانة. يقول عامر إنه لم يعد يفهم ما يريده أبوه . مسعد يضحك ملتفتا إليها يذكرها بغمزة عينه بما قاله من قبل عن الولد . هو فرح بعامر كأنما يستعيد حنانا قديما . يأتى به مترددا ، وحين رآها مستريحة لوجوده أخذ صوته يعلو وهو يدفع به إلى الداخل :

- ادخل . استرح قليلا من أبيك ابن الكلب .

يقول لها ضاحكا : الولد ابن مدارس . وأبوه لا يريد أن يفهم .

يحدثها وعيناه تنظران بعيدا . يحدث أن تلتقى نظراتهما . يأخذ وجهه فى الشحوب ، تنفسه كأنما توقف . عيناه عالقتان بعينيها ، استراحتا بعد ارهاق . أرضاها شغفه بها . شىء رقيق عذب كان ينمو. تحس دفئه حين تكون وحدها على السطح . هو يبدى كثيرا من عدم الاهتمام بها . حين تسأله عن شىء يجيبها دون أن يلتفت إليها . يجلسه مسعد بجواره ، يضربه فى ود على كتفه . حكى الكثير من ذكرياته عن أيام صباه مع بركات ومغامراتهما معا وسرقاتهما للبط والحمير والمرات العديدة التى ضُربا فيها . يضحك حتى تدمع عيناه . عامر يبتسم خافضا رأسه . هو أيضا يحكى عن ذكرياته مع أبيه . الضرب والمطاردة . أبوه يندفع وراءه إلى الشارع . عامر الأسرع . غير أنه ما يكاد يخرج من الحارة ويرى إصرار أبيه وصياحه وتجمع الناس حتى يتوقف . أخجله أن يرى الناس أباه فى ملابسه الداخلية . يستدير عائدا ويجره أبوه فى زيطة إلى البيت .

ذكرياتهما القديمة لا تنتهى . من حين لآخر يحكى عامر عن الجامعة وزملائه فى السنة الثالثة بكلية الآداب . والحجرة التى يقيم بها

مع اثنين آخرين فوق السطح . وشاويش البوليس الذى يسكن حجرتين بجوارهم . تقيم بهما إحدى زوجتيه . الزوجة الأخرى فى بلدته وسط أهله . يقسم الأسبوع بالعدل . النصف الأول فى البلدة . والنصف الثانى فوق السطح . كانوا يعرفون بموعد مجيئه حين يسمعون غناء امرأته يترامى إليهم من الحجرتين . ورائحة اللحم المسلوق . قبل أن يمضى إلى حجرتيه يمر ليسلم عليهم . هى دقائق ويسمعون أصوات الشجار والصراخ والعويل ، ثم يرونها – امرأته – وقد قذف بها إلى الخارج. ويكون عليهم التوجه إليه وتهدئته ، ويأتون بامرأته من الخارج . الكدمات الزرقاء على وجهها تحاول إخفاءها بالطرحة . تقول لدى دخولها إلى الضوء : ألف مرة أقول له لا تضرب فى الوجه .

جلسة الصلح تستمر ساعات ، وتنتهى بأن يتناولوا معهما اللحم المسلوق .

يعلق مسعد بلهجة العارف ببواطن الأمور :

– هذه امرأة لا يأتيها المزاج إلا بعد الضرب .

تفلت منه أحيانا كلمات تثير الحرج . يستمر عامر فى حديثه كأنه لم يسمع شيئا . تعجبها طريقته فى الحكى . يجعلهما يموتان من الضحك ، ويظل هو هادئا . حين يتطرق فى كلامه إلى زميلاته كانت تسأله عن أزيائهن . يصف لها قصات الفساتين وألوانها .

وتقول إنها موضة قديمة كن يلبسنها فى بورسعيد من سنوات .

يقعدون فى حجرة النوم . مسعد فى الركن على الشلتة بجواره الشيشة وموقد النار ، عامر بالقرب منه . هى غير بعيد عنهما تغطى ساقيها الممدودتين بملاءة . بينهم أطباق اللب والحمص والفول

السوداني. يندمجان في حديث عن ناس في البلدة لا تعرْفهم . تنصت لهما قليلا . يخفت صوتهما أحيانا للهمس . رأساهما متقاربان . تدهشها حرارة حديثهما وسرعة تقاربهما وكأنهما التقيا بعدغياب طويل. تسحب خيــوط الصوف والابرة . هى لا تعـرف فى شغل الابـرة غيــر عمــل الجوارب ، صنعت منها الكثير - تلك الليالى حين يغيب عامر وتعــود ساعات الصمت الطويلة لتجثم عليهما بعـد العشاء هو يدخن ويتثاءب وهى تصنع الجوارب متجنبين الحديث عنه - يقول مسعد :

- اعملى واحدا لعامر .

يعرض جواربه الجديدةعلى عامر :

- ألوان حلوة . انظر . أخضر وأزرق وبنى . اعملى له واحدا من كل لون .

همس فى صوت مرتعش : خاله سعدية ؟

هما فوق السطح . الأيام التى لا يأتى فيها يحوم حول البيت . هى مائلة على السور . رأته . شئ ما جعلهالا تبتعد . ألأنه رآها ؟ أم الرجفة التى أحست بها وكأنما توقعت حدوث شئ . القمر يضئ الحارة بلون رمادى . يذهب ويعود . يقف مائلا برأسه للوراء . يشير بيديه . تنظر إليه فى صمت . يستمر فى الإشارة بيديه متنقلا من مكان لآخر . يبدو نحيلا ضائعا وسط الحارة . يسير إلى آخرها ثم يعود . يشير بيديه مرة أخرى . يستدير فجأة إلى الحارة الجانبية للبيت . فى لحظة تراه أمامها فوق السطح . هى وقد تملكها الفزع تندفع نحوه . يجذبها منحنيا ويجلسها على القش هامسا .

– خاله سعدية ؟

يلهث محدقا فى وجهها : طول الليل ..

هى مأخوذة وكأنما ترى شخصا آخر . أكانت مجرد لحظات استجمع فيها كل قواه المشتتة .

مائلا بجسده نحوها . صوته متهدج . أنامله باردة تتحسس وجهها :

– طول الليل ..

هى لا تعى ما حدث . لم تتوقعه . تذكر أنه كان شديد التعاسة . يداه تتشبثان بكتفيها . يتكلم كثيرا . يهذى كالمحموم . تسمعه ولا تفهم شيئا . شفتاه الجافتان المرتعشتان تلمسان خدها . يده تتحسس جسدها تحت الجلباب . هو ببيجامته . ارتعش واستكان ملتصقا بها . يلهث وجهه فى تجويف كتفها . ترقد دون حركة . الجلباب منحسر عن ساقيها . دموعها تنهمر فى صمت . تخشى لو نهضت . كما لو أن شيئا سينهار فجأة . صوته يأتى من بعيد . يقول إنه لم يلمس امرأة فى حياته . تقف . هو ما يزال راقدا . تنفض القش العالق بجلبابها وشعرها . تهبط السلم . تخلع كل ملابسها قبل أن تدخل الحجرة . تلبس أخرى كانت فى سبت الغسيل . ترقد على السرير .

قرب الفجر سمعت صوت خطواته يغادر السطح . بعدها أحست بمسعد حين نهض للذهاب لنورة المياه . تتذكر عروستين من لعبها كانت تأخذهما فى حضنها وقت النوم . إحداهما شعرها أسود . الأخرى شقراء . تحاول أن تتذكر متى فقدتهما .

سمعت خطواته فى الليلة التالية على السطح . هى لم تصعد . مسعد نائم . الخطوات خفيفة . استمرت لحظة ثم اختفت . يصعد عن طريق الزريبة . يتعلق بخشب التعريشة البارز . يزحف فوقها حتى البيت . يمد ذراعيه ويمسك بحافة السطح . الخطوات تعود تزداد ثقلا كأنما لم يعد يهتم بإخفائها . تتجه ناحية السور وتعود . تحس بها تتوقف فوق رأسها . تحدق فى العتمة الخفيفة بالحجرة . ضوء القمر الفاتر يأتى من فتحات الشيش خلف الستائر . الحصيرة ملفوفة مائلة فى الركن . الطبلية وجهها للحائط وقوائمها للداخل . الشيشة بجوارها الموقد . جمرة صغيرة ما زالت تتوهج تحت الرماد . تحدق إليها طويلا . تسمع الخطوات . وقعها خافت حذر متجهة إلى مؤخرة البيت تختفى . هى نائمة . أكانت تحلم ؟ شاهد يلح عليها . الحلم . فتحة السلم على السطح لو انتبه إليها ونزل منها ؟ تراه يهبط درجات السلم . أكانت تحلم ؟ أم سمعت خطواته ؟ يوقظها إحساسها بأن شيئا ما قد حدث . أهو الباب ؟ أم ضوء اللمبة الذى اختفى عن عينيها ؟ تراه واقفا بمدخل الحجرة . يحجب ضوء اللمبة الصغيرة المعلقة فى الحوش . هى مرتجفة لم تتحرك . نظراته مصوبة إلى وجهها . أكان يرى عينيها الدامعتين ؟ يجلس على العتبة . تعتصر عينيها . صوت شهقة خافتة يفلت رغما عنها . تعود بنظراتها إلى الباب . لا تجده .

اعتادت أن تراه بعد ذلك قابعا بمدخل الحجرة . تستيقظ تحت وطأة نظراته . رأسه فوق ركبتيه المضمومتين . تتأمله فى سكون . لم تعد تلهث أو ترتجف كأنما أصبح جانبا من مشهد مألوف تتلمسه عيناها كلما استيقظت . يختفى حين يصدر عنها صوت . يقول مسعد

إن عامر لم يعد يأتي . يغير حجر الشيشة . يضغط الجمرات بظفره .

ينظر إليها كأنما يريدها أن تقول شيئا .

تقول إنه فعلا له أيام لا يأتى .

يقول إنه حتى لم يعد يمر على المحل .

يسأل : هل أغضبناه ؟

تقول لم نغضبه . آخر مرة كان يضحك معك هنا .

يدخن قليلا منصتا لأصوات المارة فى الخارج . ينهض ويلبس جلبابه الخفيف ويعود للتدخين .

قال لها إنه ذهب إلى الدرب ليشتم عريس المحول . أكان يشك في شيء ؟ قال لها :

- أهو عامر ؟

- هو .

وعامر ؟ كيف عرف أنه خرج للعزب ؟ . جاء مبكرا عن أى ليلة أخرى . هى متعبة . أضاءت لمبة الحوش ورقدت فى الفراش . الدورة الشهرية تتعبها فى بدايتها . رأسها ثقيل . أكانت نائمة ؟ أحست بيده عندما لمست يدها . راكعا بجوار الفراش يحدق فى وجهها .

- خالة سعدية .

يضغط يدها . وجهه - عندما مال على يدها ولمسه الضوء الآتى من الحوش - ازداد نحولا :

- أتريدين أن أذهب ؟

هى صامتة تنظر إليه . تحب أن تنظر إلى وجهه الشاحب . أهو الضوء الخافت فى الحجرة وحركة الستائر الناعمة مع نسمة الهواء ؟ أم ركوعه بجوار الفراش ووجهه على ذراعها ؟ أم بقايا النعاس ؟ يدها فوق رأسه . هى تعرف . دائما ما تحس ذلك . كأن روحها تنسحب منها . وفراغ . فراغ عميق معتم . وكأنما تريد الخروج منه ، غير أنها تنساب داخله بطيئا . هو يتحدث عنها . صوته المرتعش يأتى من بعيد . الوجه الشاحب . تضمه إلى صدرها . صوته وكأنما استراح أخيرا . يحكى عن قدميها المبللتين حين تخطو على الحصير ، وشعرها بلمعة البلل فى ضفيرة على كتفها ، وشعرها مبعثرا على جانب وجهها . هو يحكى . صوت كأنه الباب يغلق . أكان مفتوحا ؟ . أرادت أن تقول إن أحدا دخل البيت . وجهه قريب منها مستسلما . تلمحه آتيا فى نهاية الحوش .

- أهو عامر ؟

- هو .

★ ★ ★

- ٦ -

دفعت أمينة باب المندرة ومدت يدها بصينية الطعام إلى الداخل . كانت متربعة أمام الباب . ظلت يدها ممدودة حتى أحست بسعدية تأخذ الصينية منها . واربت الباب ووضعت خدها على يدها ، اليد الأخرى ترص قطع حجارة بلون أحمر وأخرى بلون أسود داخل مربعات حفرتها بظفرها على أرض الحوش الطينية . استغرقتها اللعبة . تنقل قطعة سوداء وتنتظر قليلا ثم تحرك أخرى حمراء .

– سعدية ؟

– نعم يا أمينة .

– ستقولين لمسعد ؟

– أقول له ماذا ؟

– إننى أخذت مصاغك ؟

– وأين أراه لأقول له .

– حين يأتى ليقتلك .

– لن أقول له .

– طول عمرك تكرهيننى وستقولين له .

– لن أقول .

– وإذا سألك عن المصاغ ؟

– لن يسألنى .

– ولماذا لا يسألك ؟

– لا أعرف . لم يسألنى أبدا عنه .

– وإذا ضاع شئ منه ؟

– لم يضع شئ منه .

– أقول إذا .. إذا ؟

– لا أعرف .

– سيبحث عنه بعد موتك .

– .. .. ..

– سعدية ؟

– نعم يا أمينة .

– سيبحث عنه .

– لا أعرف .

– أنا أعرف مسعد . سيبحث عنه .

أخرجت بعض القطع الحمراء من اللعبة . القطع السوداء ناحيتها انتشرت على هيئة قوس . نقلت واحدة منها فى قفزتين وأزاحت بها قطعة حمراء .

– قولى له إنك أضعتها .

نفس القطعة السوداء لا تزال بيدها تضغطها فى تحفز داخل المربع .

– قولى إنك أعطيتها للولد . آه . أعطيتها له .

نقلت القطعة السوداء إلى مربع فى الخلف .

– سعدية ؟

– نعم يا أمينة .

– ستقولين له ؟

– سأقول .

أزاحت القطع بظهر يدها .

– أعجبتك الفرخة . اشتريتها من فلوسى. مسعد لم يترك مليما .

مالت بكتفها على الباب .

– اعطنى الحلق .

مدت يدها إلى الداخل . عادت بالصينية فوقها الطبق فارغا .

– أغسل يدى .

– امسحيها فى الدريس . تغسل يديها !! . واحدة مكانك تخجل تقولها .

جاءت بكوز ماء وصينية وقطعة صابون ودخلت المندرة . سعدية واقفة مستندة بظهرها للجدار . الضوء يأتى من الكوة . دوائر صغيرة فوق ربطات الدريس . وضعت الصينية بجوارها . انحنت سعدية وغرفت الماء بيدها من الكوز . كانت تدعك يديها بالصابون حين مدت أمينة يدها تتحسس الحلق فى أذنها . دفعتها سعدية فى عنف فسقطت على

ظهرها . صرخت وقفزت إلى الباب وكأنما لتغلقه . غير أنها اندفعت إلى الخارج وجذبت الباب وراءها . التفتت متحفزة قبل أن تغلقه . رأت سعدية منحنية على الصينية تغسل يديها .

- تضربينني يا بنت الكلب ؟

أنهت سعدية غسل يديها . حملت الصينية ومدتها إلى أمينة التى رمقتها لحظة مترددة ، ثم تناولتها منها .

- تضربينني ؟

خلعت سعدية فردة حلق من أذنها وقذفتها إليها . التقطتها أمينة قبل أن تصل إلى الأرض .

- والأخرى ؟

- معى .

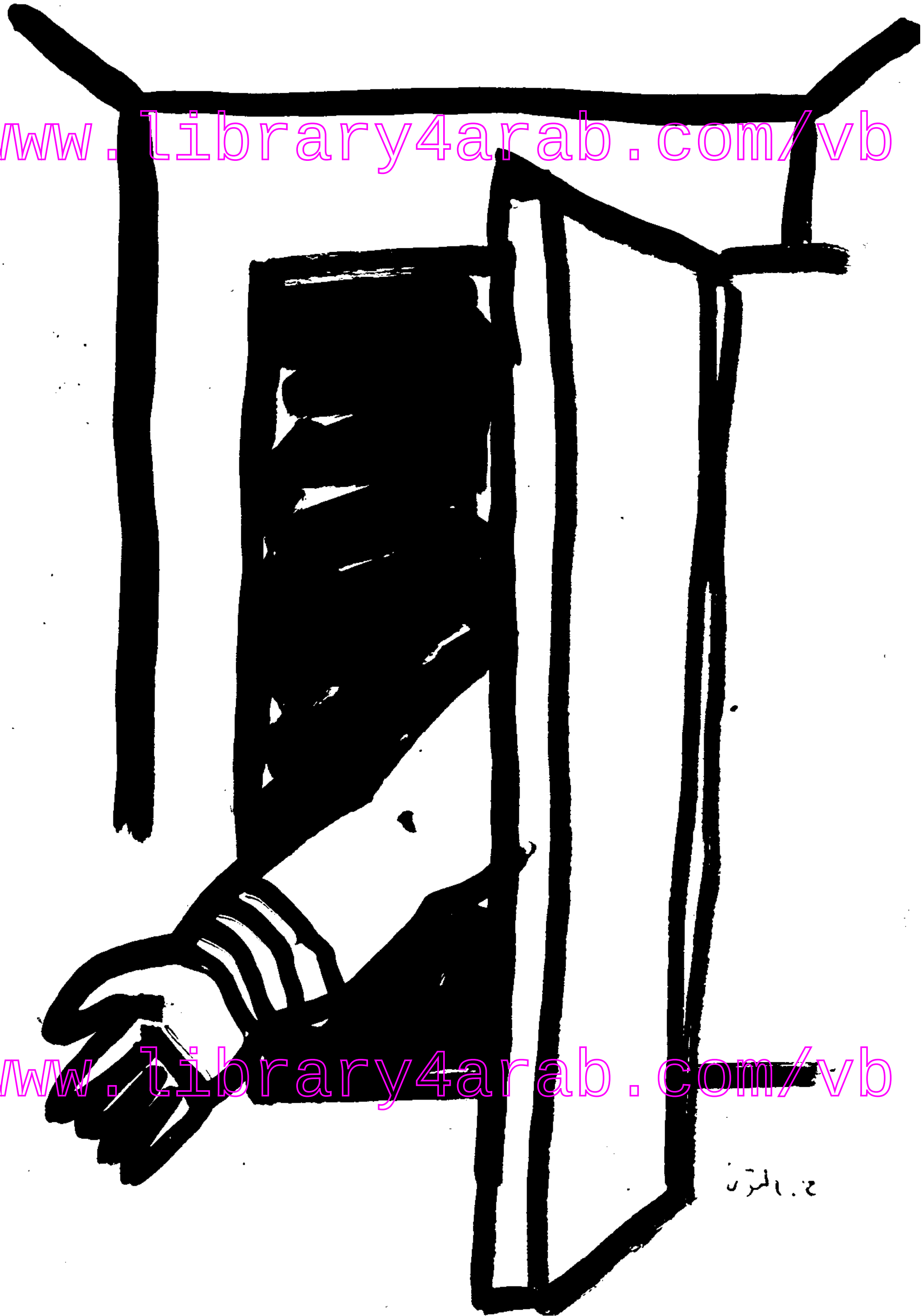
واربت أمينة الباب . أخرجت قطعة قماش ملفوفة من صدرها . فردتها ، وقلبت بإصبعها فى قطع الذهب . وضعت فردة الحلق بينها وأعادتها إلى صدرها .

البيت صامت . الباب الخارجى مغلق . أولادها مع أبيهم فى العزبة . مدت ساقيها مستندة بظهرها للجدار . كوم من الملابس المتسخة فى انتظارها .

- أتعرفين لعبة السيجة؟

- لا أعرفها .

- سأعلمك .



www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

– لا أريد .

– اجلسى على العتبة . سأترك الباب مواربا .

– لا أريد .

– سهلة . تنقلين قطع الحجارة فى المربعات .

– لا أريد .

– طيب .

أغلقت الباب .

★★★

www.library4arab.com/vb

- ٧ -

يشقان طريقهما وسط زحام السوق لا يلتفتان إلى أحد . أصوات كثيرة حولهما . عنتر شاحب الوجه ينظر مشدوها . يسير أمام مسعد متمايلا بجسده الطويل . يدفع الناس خفيفا . مسعد يلهث . يحس ثقلا شديدا فى صدره . طعم الغبار فى فمه الجاف . عيناه تدمعان من أشعة الشمس الساطعة فيميل بوجهه جانبا . يتحسس مقبض السكين من حين لآخــــر . يحس عنتر أنه ابتعـد كثيرا . يلتفت . يرى مسعد من فوق الرءوس ضائعا وسط الزحام . يتراجع خطوة وأخرى حتى يصبح قريبا منه . هما وقد مرا بالمنعطف الأول ، واستقام الشارع مكتظا بالناس ، يقتربان من المنعطف الثان . بعده يأتى محل بركات .

– ٨ –

أنصت قليلا عله يميز الصوت الذى أيقظه . لا لم يكن نبش الفئران فى الكراكيب . وجهه للحائط حيث يرقد . خيط رفيع من النمل بامتداد شق فى الحائط . كان يحلم . صوت يتردد من حين لآخر أشبه برنين غطـــاء حلة تتأرجح دون أن تسقط . لا . لم يكن هذا الصوت أيضا . تلك العينان . عيناها . تقف جانبا أمام المحل ملتفة بالملاءة ، جذبتها بإصبعين لتغطى فمها وأنفها . المحل يوم السوق مزدحم بالرجال والنساء . طول الوقت يسمع صوتها خافتا وسط ضجيج الأصوات حوله .

– نصف كيلو

هو لا يلتفت إلى أحد . عيناه على اللحم يقطعه بالساطور . كان يلفه فى الورق حين رأى يدا أمامه . لفتت نظره الغوايش الكثيرة حول معصمها . قال لنفسه إنها من الذهب .

– نصف كيلو .

الصوت هامس . خجول . قريب من أذنه . نظر إليها . ذراعها بضة تمتد من تحت الملاءة . عيناها مكحولتان . من صوتها عرف أنها من أهل المدن . لابد أنها من المهجرين . هى لحظة . كأنما قرر أمرا . أكان يدرى ما ينتظره . استدار وقطع شريحة من اللحم لم يزنها . قال :

– للطبيخ ؟

– أَه .

لفها فى الورق ومدها إليها . أطبق يدها على النقود وهمس :

– عيب . نحن جيران .

نظرة حائرة فى عينيها ، ويدها متصلبة فى يده .

وقف قليلا أمام المحل يلتقط أنفاسه . الزبائن أفسحوا له طريقا . وجهها حين رد يدها مبتسما وكأنما لم تسمع كلمة طيبة فى حياتها . نظر إلى الحارة الضيقة بجانب المحل حيث تقف امرأته تبيع عفشة البهيمة لحسابها . قدمها على حافة الطست وقد شمرت الجلباب عن ساقها المعروقة .

جلس محدقـا فى عتمة الحجرة . عنتر مكوم بجوار الحائط المقابل . ذراعه تحت رأسه . ركبتاه مضمومتان . يحس بالعرق يسيل على ظهره . الحجرة خانقة . كم الوقت ؟ لابد أنه يقترب من الفجر . ساعة جيبه ؟ أين ؟

– ألم تجد غير المهجّرين ؟

– ومن أين جاءوا ؟ من القطب الأزرق ؟ ألم يكن بالقنالى عائلات؟ لا تلبس كل هذا الذهب إلا بنات البيوت .

هو متخذا طريقه إلى المدرسة . لم يدخلها منذ كان تلميذا بالابتدائى . عام واحد قضاه بها وأخرجه أبوه . البوابة مفتوحة على سعتها . أولاد يجرون فى الحوش . حفرة فى منتصفه حيث كان سارى العلم سدت بحجر أبيض . نساء ورجال يجلسون فى الطرقة . فصله

كان فى الضلع المجاور لدورة المياه . يبدو المبنى وكأنما أصبح أقل اتساعا ، والحجرات أصغر حجما . الكثيرون هنا يعرفونه ، اشتروا منه.

صمتوا واشرأبت رءوسهم . بعضهم وقف متأهبا للترحيب به . هو فى جلباب من الصوف جديد ، والشال الأبيض حول كتفيه ، يفوح منه العطر . أخوها خرج من باب حجرة متخطيا الجالسين فى الطرقة يصيح مهللا :

– أهلا . أهلا . شرفتنا يا حاج مسعد .

هو وقد امتلأ سرورا بحرارة اللقاء مد يده فى جيبه وأخرج حفنة من النقود المعدنية – كان الأولاد فى الحوش قد كفوا عن الجرى وتبعوه – مد يده بها إلى أقربهم .

– خذ وزعها عليكم .

انفجر صياحهم وجروا وراء الولد الذى انطلق نحو الجالسين فى الطرقة مادا يديه يريهم النقود .

بحث عن جلبابه فى العتمة . عثر يعلقه على مسمار فى الحائط . فتح الباب فى هدوء وخرج . هى المرة الأولى التى يخرج فيها من الحجرة . عتمة الفجر . ونسمة باردة جففت عرقه . كأنما أفاق فجأة من نوبة مرض . متلفتا حوله . مدققا النظر فى كل شىء . يسير حافيا . أيعود ليبحث عن حذائه وسط الكراكيب فى الغرفة المعتمة ؟ . أين

يذهب؟ يخرج من حارة إلى أخرى . بيوت وبيوت كأنه لم يرها من قبل . بعضها واطىء وبعضها مرتفع . ملتصقة . ومصاطب. وأبواب مغلقة ترقد الكلاب فى هدوء أمامها . أسراب البط والأوز تأخذ طريقها إلى الترعة .

يجلس على المقعد الوحيد . امتدت يد من فوق الحاجز الخشبى بمقعد آخر تلقفه أخوها مرحبا :

– لا تحكم علينـــا بما تراه الآن . لدينا بيت ملك من أربعة طوابق . بكل طابق ثلاث شقق فى الحى التجارى ببور سعيد . مازال سليما . لم يضرب . الحمد لله . ومطعم أيضا . كل شىء مدون بالورق هنا . انظر . ما تركه لنا الوالد .

مد يده وسحب كيسا من القماش معلقا على مسمار بالحائط . أشياء كثيرة معلقة على الجدران الثلاثة . لا يوجد فراغ بينها . ملابس وأكياس مختلفة الحجم وحزم بصل وثوم .

– لم أحمل فى حياتى هذا القدر من الأوراق . قلت لنفسى إذا عدنا لابد وأنهم سيطلبون الأوراق . بيوت تهدمت . كيف تقول إن بيتى كان هنا ؟ ضحك . أخرج أوراقا مهترئة عليها أختام كثيرة مقسمة إلى ثلاث مجموعات . كل مجموعة يمسك بها مشبك غسيل .

– حظى أفضل من غيرى . معنا واحد عنده محل خردوات . حتى البطاقة العائلية لم يحضرها ولا شهادات ميلاد الأولاد .

– توجد دفاتر وسجلات وحكومة .

– لو وجدت شيئا فى مكانه . انظر .

فرد ورقة من مجلة قديمة :

– هذه صورتى أمام المحل . أنا الواقف على اليمين ألبس المريلة. الآخرون جيران فى الشارع . الباب المفتوح وراءنا باب المحل . اللافتة



www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

فوقنـــا . الاسم غير واضح . جاء صحفى فى أول الحرب وصورنا . أنا أيضا قلت كلاما . مكتوب هنا .

تفوح فى المكان رائحة طبيخ حامض . الأولاد وقد تبعوه إلى الداخل يتلصصون بوجوههم من جانب الحاجز . الحصيرة الملونة تحت قدميه نظيفة . منضدة خشبية فى المنتصف فوقها مفرش أزرق من البلاستيك ، واناء به زهور صناعية عليها آثار ذباب .

– ربما من الأفضل أن أقول لك من الآن .

سمع نقرا على الحاجز الخشبى . حين التفت رأى صينية الشاى ممدودة من فوقه . هى يدها . الغوايش الذهبية حول المعصم . بدت قدماها تحت الحاجز فى شبشب من القطيفة الحمراء .

– منذ عامين عقد قرانها . مجرد عقد قران . كنا نستعد لزفافها. كل شىء نصيب .

وقف أمام بيته ينظر إلى قدميه العاريتين . التراب المبلل بندى الفجر التصق بهما . حكهما بحافة المصطبة . دفع الباب خفيفا فوجده مغلقا . استدار إلى مؤخرة البيت . أمسك بباب الزريبة ودفعه بكتفه . انفتح دون صوت . عادة يتركون باب البيت المؤدى للزريبة مفتوحا . وجده مواربا . وقف وسط الحوش . المصباح الصغير معلق على الحائط . ضوؤه أصفر شاحب . تناهى إليه صوت تنفس ثقيل من حجرة النوم . وقف بعتبتها حتى اعتادت عيناه ظلمتها الخفيفة . أخته راقدة فى السرير بقميص نوم امرأته الحريرى الأزرق العارى الكتفين . شديدة النحول . انزلقت حمالتا القميص عن كتفيها فبدا نصف ظهرها عاريا . زوجها بجوارها يلبس

جلباب نومه الخفيف ، عندما تقلب فى الفراش بدا ضئيلا كالفأر داخل الجلباب الواسع . أولادهما يرقدون على أرض الحجرة فوق اللحاف الساتان الأزرق كانت امرأته تفرشه للزينة فوق السرير . وقف يلهث مستندا للحائط . النوافذ عارية من الستائر . ضوء الفجر ينفذ من فتحات الشيش . الطبلية فى الركن فوقها حلتان بهما آثار طعام ومعالق وبقايا عيدان بصل أخضر . تقدم من « الكومدينو » وفتح الدرج باحثا عن ساعته . كان منحنيا ويده داخل الدرج . زوج أخته بجواره مفتوح الفم وعيناه نصف مغمضتين ، شخيره عميق متقطع . لمح سلسلة الساعة تلمع على صدره . طرفها معلق بحلقة فى عروة زرار الجلباب . الطرف الآخر فى الجيب الصغير قرب الكتف . أخرج الساعة من الجيب ، وانحنى على زوج أخته يفك طرف السلسلة من العروة . يداه المبللتان بالعرق لا تسعفانه . انتبه فجأة إلى توقف شخيره. التفت . وجده يحدق مرعوبا فى وجهه . أخذا يتبادلان النظر فى صمت . أخته جلست فجأة . انزلق قميص النوم إلى ردفيها . بدت فى عريها كهيكل عظمى وثدياها كبقعتين داكنتين . غمغمت ببعض كلمات وهرشت رأسها وتحت ابطها واستلقت مرة أخرى . وضع مسعد الساعة فى جيبه واستدار خارجا . نزع حجرا من الجدار خلف ضلفة باب الحجرة . أخرج من التجويف أوراقا نقدية دسها فى جيبه وأعاد الحجر إلى مكانه. رجع إلى السرير . زوج أخته يرقد ساكنا مفتوح العينين .التقط مسعد شبشبه من أمام الفراش. وضعه تحت ابطه وخرج إلى الحوش . رمق باب مندرة الدريس المغلق ومضى إلى الزريبة . فك قيد البغل ، ثم رأى حمارا فى الجانب الآخر . حمل زوج أخته . وضع البردعة على كل منهما وسحبهما وراءه .

★★★

- ٩ -

يتناولان عشاءهما . عيش وجبن وفول أخضر . البغل والحمار مربوطان فى النافذة بالخارج . تركا باب الحجرة مواربا . قال عنتر :

– جئت بهما ؟

– آه .

– والساعة أيضا ؟

أشار إلى سلسلة الساعة التى تتدلى من جيب جلباب مسعد .

– وما حاجتنا لهما ؟

مسعد غاضب . لم يجب . بلع لقمتين وانفجر مزمجرا :

– أتظنهم يبقونه فى البلدة حتى الآن ؟ أقاربه فى العزب كثيرون . وأنا ماذا أفعل هنا ؟ وأنت ، ماذا تخفى عنى ؟ تخرج وتعود ، تسمعهم فى المقهى يتكلمون ولا تقول شيئا ، ولا كلمة قلتها .

– أخفى عنك ياعم مسعد ؟

– متى قلت لى أى شىء؟ متى؟ أتريد أن أخرج وأبحث بنفسى ؟ وماذا يقولون وهم يروننى أجرى من مكان لمكان وراء غلام ؟ ماذا يقولون؟ وأقـول لنفسى عنتر فى الخارج يبحث ويسمع وسيأتينى بمكانه.

– لو انتظرت ياعم مسعد حتى ننتهى من العشاء كنت أخبرتك .

– أين هو ؟

– لم يغادر البلدة . يقولون إنــه لو سافر إلى القاهرة فستذهب وراءه وأنت تعرف عنوانه هناك . أبوه يخفيه .

– أين ؟

– فى بيت عمته .

توقف مسعد عن مضغ الطعام ونظر إليه .

– الأولاد فى المقهى رأوه . كانوا يستحمون فى الترعة ورأوه ينظر من شباك بيت عمته .

– هو ؟

– هو . الأولاد أقسموا لى .

– عمته ؟ هنا بجوارنا ؟

– آه بجوارنا .

أسند مسعد ظهره للحائط مستغرقا فى التفكير .

– آه ياعنتر لو تأتينى بشيشة .

– دقيقة ياعم مسعد . من المقهى أم من البيت ؟

– ما تراه .

انطلق عنتر خارجا . لم يغب طويلا . عاد بالقوالح والشيشة . مسعد فى جلسته لم يغيرها . استقبله قائلا :

– أذهب الآن .

– أين ؟ والشيشة ؟

– فى وقت آخر .

– انتظر ياعم مسعد . لو كنت ذاهبا إليه . انتظر حتى ينتهوا من صلاة العشاء وتخف القدم فقد يراك أحد قبل أن تصل .

نظر إليه مسعد مترددا ثم جلس .

شربا الشاى . مسعد يدخن الشيشة . عنتر يقعد أمامه وذراعاه فوق ركبتيه :

– إيه ياعنتر . من كان يظن ؟

– شدة وتزول ياعم مسعد .

– تزول ؟

أخرج من جيبه الأوراق النقدية ومدها إلى عنتر .

– خليها معك .

– وماذا أعمل بها ؟

– لا أعرف رأسى من رجلى ولا ما سيحدث لى . لا أحد لى الآن غيرك .

– تضيع منى ياعم مسعد . لم أحمل نقودا فى حياتى .

– خذ .

أخذ عنتر النقود . وضعها فى علبة صفيح وأغلقها .

– حتى لا تأكلها الفئران .

دس العلبة وسط الكراكيب .

نهض مسعد ولبس جلبابا نظيفا ووضع مطواته فى جيبه . قال عنتر وهو يبحث عن حذائه :

- سآتى معك ياعم مسعد .

وقف مسعد منتظرا بفتحة الباب . قال عنتر :

- نخرجه من البيت أولا . نخرجه بالحيلة . سنخرجه لك . اتخذا طريق الترعة . الطريق خال فى هذا الوقت من الليل . ينحدر خفيفا نحو المياه .

سار مسعد مائلا يتحسس خطواته .زمجر فجأة :

- ألم تجد غير هذه السكة ؟

- لو مشينا فى الشارع قد يرانا أحد .

- كنا انتظرنا قليلا .

- سينامون .

انتقل عنتر إلى جانب مسعد من ناحية الترعة :

- استند إلىّ ياعم مسعد .

أمسك مسعد بكتف عنتر ، ورفع الجلباب عن ساقيه حتى لا يعوق حركته . عندما وصلا إلى مصاطب الجامع المتدرجة إلى المياه خلعا حذاءيهما وعبرا المصاطب . قال مسعد وكان جالسا على المصطبة يلبس حذاءه :

- لو أنه كان رجلا لهان الأمر .

- الواحد لا يختار مصائبه ياعم مسعد .

ظل مسعد جالسا . عنتر يقف بجواره وحـــذاؤه تحت ابطه .

قال مسعد :

– سأقتله ياعنتر . سأقتله .

أصوات تأتي من داخل الجامع . رجال يتكلمون . نهض مسعد .

سارا فى طريقهما .

– لو أني فقط عثرت عليه صدفة وقتلته .

– صدفة ؟ كيف وهو يختبيء ؟

– ندبر حيلا . ونتسلل فى الليل . كل هذا من أجل غلام .

– وهل أمامنا غير ذلك ؟

بدا البيت أمامهما كتلة صماء معتمة . همس عنتر :

– الباب من ناحية الشارع .

رجعا قليلا ، عثرا على زقاق ضيق نفذا منه إلى الشارع .

البيت من طابقين . ضوء يأتى من نافذة مفتوحة بالطابق الثانى . كمن مسعد – كما أشار له عنتر – بجانب الباب المغلق ملتصقا بالجدار . دق عنتر الباب دقتين ووقف فى منتصف الشارع . أطلت امرأة من النافذة .

– خاله بثينة ؟

– نعم .

– عم بركات يريد عامر فى المقهى . جلسة صلح هناك .

– ومن أنت ؟

– أنا عنتر .

اختفى وجه المرأة ، ظلت يدها على قاعدة النافذة ، عينا عنتر عالقتان بها ، وعندما سحبتها إلى الداخل أحس أنهم لم يصدقوه .

مسعد يكتم أنفاسه اللاهثة بجوار الباب . يفتح مطواته داخل جيبه ويشتد التصاقه بالجدار . يشب على طرفى قدميه ليتيح لنفسه مزيدا من الاختباء .

عادت المرأة إلى النافذة . أراحت ذراعيها على القاعدة .

– نعم ياعنتر . ماذا تريد ؟

– عامر . أبوه يريده .

– ومن عامر ؟

– ابن أخيك .

– ومن أخبرك أنه هنا ؟

– عم بركات أرسلنى .

تحدق فى الشارع من أوله إلى آخره ورأسها خارج النافذة . عكس الضوء ظلين يقفان خلفها . قاعدة النافذة البارزة تحجب عن عينيها الباب . ربما نسمة هواء حركت جلباب مسعد . وربما إشارات عنتر الخفية بيده لمسعد كى يبتعد . أخرجت المرأة فجأة كتفيها :

– ومن معك ياعنتر ؟

تلفت عنتر حوله :

– ومن سيكون معى ؟

– مسعد . هو مسعد . عيب عليك .

اختفت فجأة وأغلقت شيش النافذة ، ثم عادت فدفعته بقوة فارتطم بالجدار . التفت عنتر على الصوت . رأى دفقة الماء تتألق فى الضوء . تعثر وهو ينحنى مبتعدا فنالت المياه ظهره .

– طيب يا عنتر . إن ما قلت لبركات .

يدها ممسكة بالحلة قذفته بها وأطلقت صرخة مدوية .

تسلل مسعد ملتصقا بالجدار . اختفى فى الزقاق الضيق . لحق به عنتر . خرجا إلى طريق الترعة . خلع عنتر جلبابه وأخذ يعصره . مسعد يسبقه بخطوتين . قال عنتر : – تقول لبركات . وماذا يفعل لى بركات .

هما فى الحجرة . مسعد يجلس على الفرشة وظهره للحائط . عنتر أشعل اللمبة وعلقها على المسمار . نشر جلبابه المبلل فوق الكراكيب ولبس جلبابا آخر .

– عنتر . لوعدنا إلى هناك ؟

– الآن ؟

– الآن .

– وماذا نفعل وقد انتبهوا لنا ؟

– ربما ينقلونه الليلة .

– بعد ما حدث لن ينتظروا للصباح .

– وأين يذهبون به ؟

– فى الصباح أكون عرفت . لا شىء يخفى .

– لو انتظرناهم على الطريق أو تبعناهم ؟

– وهو معهم ؟ لن يقل عددهم عن أربعة من أقاربه . نحن لا نسعى لمعركة أو شجار . ولماذا نتبعهم ؟ هل سنقتحم البيت ؟ يخرج الولد من نفسه أو نخرجه . فى الصباح أكون عرفت مكانه .

- لا أستطيع أن أستمر فى التفكير طويلا مثلك .

يجلسان وبينهما كوبا الشاى . الوقت يمضى وهما صامتان . عنتر أراح رأسه فوق ركبتيه المضمومتين . مسعد يتجنب النوم قدر ما يستطيع . ترهقه الأحلام والكوابيس وتلك اللحظات التى تستمر طويلا بين اليقظة والنوم . يقول عنتر :

- كنا نمشى قليلا ياعم مسعد .

- آه . نمشى .

خرجا . سارا على الطريق الزراعى . أضواء السيارات تمرق بجوارهما . عنتر يحكى عن زبائن المقهى . يسأله مسعد :

- والحاج مختار مازال يأتى المقهى ؟

- وأين يذهب ؟ يجلس فى ركنه لا يغيره ، والفص تحت لسانه . لا يفيق إلا مع الفص الرابع . بعدها يلتفت إلى الحاج بسيونى .

- آه . بسيونى . أيام . لم أره من زمن .

- لك وقت طويل لم تسهر فى المقهى . أرأيتهما وهما يتبادلان النظرات ؟

- آه رأيتهما . بينهما خصومة عمرها يزيد على العشرين عاما .

- ما سببها ياعم مسعد ؟

- لا أحد الآن يتذكر سببها . حتى هما لا يتذكران . وربما من البداية يتكتمان السبب . إنما الخصومة لا تنتهى .

- الحاج بسيونى يضع المنضدة على يمينه فوقها أربعون حجرا

بالتمام . أعدها له بنفسى . فى كل مرة يغير الحجر يضع قطعة الحشيش وعيناه تنظران إلى الحاج مختار من تحت لتحت .

– أنت لم ترهما عندما كانا يقضيان السهرة معا . ثمانون حجرا . ويجلسان متقابلين وهات ياضحك . المقهى كله كان يسهر حولهما . بعد الخصومة أقسم مختار ألا يقرب الحشيش واستبدله بفص الأفيون.

– طول الوقت . مثل ديكين ينقران الأرض قبل العراك .

– ولن يتعاركا أبدا .

توقف مسعد محدقا إلى أضواء البلدة المجاورة ، وكانت تبدو عن قرب . أضواء صغيرة تتحرك من مكان لآخر وكأن هناك من يحملها :

– أهى بلدة أبو راشد ؟

– هى .

– أول مرة أنظر إليها .

– نجلس فى مقهى هناك ؟

– ستجد من يعرفنى . الكثيرون يأتون يوم السوق .

فى عودتهما أشار عنتر إلى حوض قصب مفتوح على جانب الطريق لم ينتبها إليه أثناء مجيئهما . فانوس مضىء على رأس الحوض. رجل يجلس أمام نار صغيرة فى وعاء من الفخار . اتجها إليه . قفزت الفئران والضفادع على صوت خطواتهما . جلسا غير بعيد عن النار . أوراق القصب الجافة تغطى الأرض حيث يجلسون . رد الرجل على سلامهما بصوت خافت . نهض وبيده سكين متجها إلى العيدان الكثيفة . كان قصيرا نحيلا يلبس سروالا واسعا وفانلة قاتمة فوقها صديرى وعمامة حول رأسه . همس عنتر :

- الرجل غريب عن الناحية .

- وهل تعرف كل أهل الناحية ؟

- العمامة . نحن لا نلفها كما يفعل .

عاد الرجل ومعه ثلاثة عيدان نزع عنها الأوراق . قال عنتر :

- من أى بلد ياعم ؟

- من بعيد .

وضع أمامهما العيدان بعد أن قطعها إلى نصفين وعاد إلى موقد النار . قال عنتر :

- وبكم أخذته ؟

- ما هو ؟

- الحوض .

- ولم تسأل ؟

- مجرد كلام .

الرجل يغذى النار بعيدان الحطب . لم يلتفت إليهما . وهج النار ينعكس على وجهه الضامر . يمصان القصب فى سرعة كأنما يتعجلان الخروج . الرجل غير مريح . يبدو فى استغراقه أمام النار وكأنه يحمل هموم الدنيا . لم ينتظرا حتى ينتهيا من القصب . أخذ عنتر ما تبقى فى يده ونهضا . قال الرجل :

– الحاج مسعد الجزار ؟

قال عنتر : آه . هو .

قال الرجل : اسكت أنت – التفت إلى مسعد – لى كلمة معك اجلس .

عادا إلى مكانهما . قال الرجل :

– كنت سأمر عليك الليلة أو صباح باكر .

قال عنتر : – وأين تمر عليه ؟

– عندك .

– عندى !

صمت محدقا إلى الرجل . الرجل يقلب النار مستقبلا الدخان بوجهه . مسعد مشدوها ينقل نظراته بينهما . قال الرجل :

– تربطان البغل والحمار بالنافذة . كل من رآهما عرف أنكما ستذهبان إلى العزب .

قال عنتر : آه . سنذهب إلى العزب .

قال الرجل : هذا شأنكما .

ساد الصمت . انحنى الرجل قليلا على النار . تبادل مسعد وعنتر النظرات . قال الرجل :

– الولد يفلت من يدك يا مسعد .

ساد الصمت مرة أخرى . قال مسعد فى صوت واهن :

– كيف ؟

– أخواله جاءوا وأخذوه إلى العزب .

– متى ؟

– حين ذهبتما إليه فى بيت عمته كان قد غادره بساعة زمن . أخواله سبقوكما .

التفت إلى عنتر : الولد الذى أخبرك بمكانه قال لبركات .

قال عنتر : – وأنت . كيف عرفت ؟

– كل الكلام لا يقال على المقهى .

عنتر وقد أحس بغرابة ما يحدث نهض فجأة :

– قم بنا ياعم مسعد .

مسعد يجلس مطرقا . همس :

– انتظر يا عنتر .

تردد عنتر ثم عاد إلى جواره . قال مسعد :

– أى عزبة أخذوه ؟

– لا تسألنى .

رمقهما لحظة صامتا . ثم قال :

– لن تناله يامسعد . إن أردت ساعدتك .

تنهد عنتر فى صوت مسموع . ابتسم وغمز لمسعد بعينه . غير أن مسعد ظل متجهما .

قال عنتر : – وكم تريد ؟

سحب الرجل بعض أعواد الحطب من جواره ، كسرها ودفع بها إلى النار :

- لا أريد شيئا ياعنتر .

والتفت إليه مبتسما : - النقود التي تخفيها في حجرتك ؟

صاح عنتر فزعا : نقود عم مسعد !

- ظننتها نقودك . العلبة الصفيح يراها كل من يدخل الحجرة .

- أخذتها ؟

ابتســـم الرجل مرة أخرى :

- حين سمعت بالحكاية أردت أن أراكما . الباب مفتوح وأنتما نائمان . وكيف ترى رجلا وهو نائم . المرة الثانية لم أجدكما . العلبة فوق الكراكيب تلفت النظر. حين عرفت ما بها أخفيتها تحت الكراكيب .

هما وقد أخذهما الحديث أحسا بشيء من الهدوء يعود إليهما . غير أنهما ظلا متلاصقين مشدودين إلى الرجل . قال مسعد :

- قلت تساعد . كيف ؟

- أقتل لك الولد .

تبادل هو والرجل النظرات لحظة . استرخى مسعد في قعدته . أحس بنتوء بارز كان يخزه طول الوقت في فخذه ، أزاحه بيده . صوت عنتر يأتي وكأنما من بعيد :

- وهل تعرفه لو رأيته؟

www.library4arab.com/vb

- أعرفه .

- وأبوه بركات ؟

– وأعرف بركات . ماذا تريد أيضا ؟ نصف اللحم الذى يبيعه مسروق . أشقاء امرأته يسرقون له العجول من البحيرة . ومسعد يعرف .

قال مسعد : – لا أعرف . سمعت كلاما .

قال عنتر : – وما اهتمامك ؟

– أبدا . يصعب على الواحد أن يرى الولد يفلت .

مد ساقه النحيلة وأخذ يقلب النار بعود حطب . قال :

– أنت لا تخيفهم . لو أحسوا بالخطر سيقتلونك .

نهض مسعد وتبعه عنتر . قال الرجل :

– إن أردتنى تجدنى هنا .

خرجا إلى الطريق . قال مسعد بعد أن ابتعدا :

– عنتر . الرجل أفزعنى .

– أنا أيضا . يعرف كل شيء .

سارا بعض الوقت صامتين . الطريق خال والحقول معتمة على الجانين . قال عنتر :

– عم مسعد . يبدو أن شيئا بينه وبين بركات . ربما سرقوا عجوله .

– من يدرى . وربما لا علاقة له بأى شيء . كان جدى يحكى عن رجال فيهم شيء لله يجوبون البلاد أحيانا ويقومون بأعمال تقلق الناس وتدهشهم .

www.library4arab.com/vb

– أهو منهم ؟

– ربما . كان ذلك فيما مضى .

– أتصدقه ياعم مسعد ؟

– وهل قال شيئا لم نفعله .

– ولو قلت له أن يقتل الولد ؟

– يقتله .

كانا يقتربان من البلدة . أضواء قليلة هنا وهناك .

– نحن مكشوفان لهم ياعنتر .

– آه .

– يروننا ولا نراهم . كل ما فعلناه . وما سنفعله أيضا .

بلغا طريق الترعة . قضيا حاجتهما على الشاطىء . بعدها وقف مسعد صامتا ينظر إلى المياه ، ثم خلع ملابسه ونزل إلى الماء .

جلس عنتر على حجر ينتظره .

★★★

www.library4arab.com/vb

ـ ١٠ ـ

يتناولان عشاءهما فى الليلة التالية . عنتر بجواره سبت أخرج منه حلة بها لحم مسلوق وأخرى أصغر حجما بها أرز :

– أختك أرسلته .

يدندن بغناء خافت وهو يميل على السبت . أخرج بيضا مشويا وضعه بجوار الحلتين .

– وباذنجان مخلل تقول إنك تحبه .

مسعد وقد قضى النهار وحده راقدا بدا متعبا . اقترب من الطعام . قال عنتر :

– أرسلت لى فى المقهى هذا الصباح . قالت : « أرأيت . دخل علينا ولم نحس به » . وتقول لك إن واحدا اسمه رضوان جاءك بخمسين جنيها وعجل ربطته فى الزريسبة . وتقول لك ماذا تفعل به ؟

مسعد يأكل صامتا . رمقه عنتر بجانب عينه . قال :

– ما تظن أنه حدث اليوم ؟

نظر إليه مسعد . قال عنتر متألق الوجه :

– بركات .

صمت ، ثم قال مبتهجا :

– جاء المقهى ليضربنى . رآه ، ويصيح ويشتم . رآه الأولاد قادما ومعه فرع شجرة مكشوط . هو جاء من هنا وأنا خرجت من الباب الخلفى .

– سيأتى وراءك .

– وأنت هنا ؟ لا . لن يأتى .

كنس بقايا الطعام أمام مسعد بجانب يده . وقال :

– أخذوا الولد إلى عزبة أبو حديد .

شربا الشاى . وضع عنتر الكوبين الفارغين جانبا . قال :

– نذهب الليلة .

– نذهب .

★★★

هما فى طريقهما إلى عزبة أبو حديد . مسعد يمتطى البغل وعنتر وراءه فوق الحمار . كانا حذرين لدى خروجهما من البلدة . انتظرا حتى اختفت الأصوات من الشارع . خرج عنتر أولا . أخذ جولة حول البيت والحوارى القريبة مدققا النظر فى الأركان وخلف أكوام السباخ ، ثم خرج مسعد يلف الشال الأبيض حول رأسه مخفيا نصف وجهه . رآه عنتر وكان منحنيا تحت البغل يربط البردعة . نهض ودخل الحجرة . عاد وجلباب قديم حول وجهه .

سحب كل منهما ركوبته إلى الحارة المجاورة ومنها إلى حارة أخرى . ابتعدا عن الشوارع حتى خرجا من البلدة . وقفا على الطريق المؤدى للعزب . امتطى كل منهما ركوبته . تحسس مسعد مطواته فى جيبه وانطلقا .

الحقـول على يمينهما ، والسحب المعتمـــــة تغطي السمـــاء .

قال مســـــعد :

– أتعرف بيوت أخواله ؟

– أخواله كثيرون . عزبة أبو حديد وحدها له فيها ثلاثة . أكبرهم الحاج جابر . لابد سيأخذه عنده . هو على ما سمعت يريد أن يزوجه ابنته .

لكز الحمار حتى لحق بمسعد وسار بجواره :

– نرى البيت أولا ياعم مسعد . أذكر أنه كان من دور واحد . وله شكمة تطل على الحقول . لو أن الحقول مازالت أمامه سنختفى داخلها . هم لا يتوقعون ذهابنا الليلة . ربما غدا . أو بعد غد . لابد وأن الولد سيخرج لأى سبب .

– وإذا لم يخرج .

– لن ننادى عليه هذه المرة . هى المرة الأخيرة لنا . لو خابت لن يتركونا . نشعل النار فى البيت . آه نشعلها . فيخرجون وتنال الولد .

أوقف مسعد البغل :

– عنتر كأنى لم أعرفك أبدا .

– لم ياعم مسعد ؟

– تقول كلاما لا يتوقعه الواحد . أكمل كلامك .

عادا إلى السير . قال عنتر :

– النار مشتعلة فى القش على السطح . نحن مختفيان فى الحقل أمام البيت . هم يندفعون خارجين . زيطة وصراخ . تقتل الولد وتعود .

لا تنتظرنى . سأكون وراءك . لا تنتظرنى . لو رجعنا من هذا الطريق سيروننا . تعود إلى الحقل ومنه إلى حقل آخر . لا تخرج أبدا إلى مكان مكشوف حتى تصل إلى البلد . وتذهب مباشرة إلى بيتك .

أوقف مسعد البغل مرة أخرى :

– وكيف نشعل النار ؟

– معى هنا – أشار إلى لفة خيش مربوطة إلى جانب بردعة الحمار – كرة من القماش بطرف عصا مبللة بالجاز . أقذف بها بعد أن أشعلها إلى القش فوق سطح البيت .

عادا إلى السير متجاورين . مرا بعزبة وأخرى . العزب فى الليل تبدو متشابهة . طريق رفيع جانبى بامتداد مجرى مائى صغير وسط الحقول ينتهى بكومة من البيوت المعتمة . بدت عزبة أبو حديد أمامهما . كانت بخلاف العزب الأخرى قريبة من الترعة تضيئها أنوار كثيرة . توقفا بجوار مصلى خارج العزبة . قال عنتر :

– هذه الأنوار ؟

نزلا عن ركوبتيهما وتواريا تحت الأشجار المحيطة بالمصلى . تترامى إليهما ضجة شديدة وزغاريد وصراخ . قال مسعد :

– فرح ؟

– آه . فرح .

ربطا البغل والحمار فى شجرة وجلسا فى المصلى . بدا من خطوط الأضواء أنه سرادق خارج البيوت . غبار تثيره الأقدام علق بالضوء . انفجر فجأة صوت قوى . غناء امرأة فى الميكروفون .

– عم مسعد ؟

مسعد ينظر إلى مياه الترعة وقد انعكس عليها رذاذ الضوء .

عنتر يسوى بكفه القش على أرض المصلى :

– عم مسعد . أذهب أنا .

– وماذا تفعل ؟

– أنظر هناك . أنظر وأعود .

ابتعد بقامته الطويلة . مد مسعد ساقيه وأراح ظهره لسياج المصلى . عيناه على عنتر وهو يقترب من الأضواء .

السرادق كبير . جوانبه الثلاثة مغلقة . الجانب الرابع مفتوح حيث تكدس الرجال واقفين . حشر عنتر نفسه بينهم . قامته الطويلة تساعده على رؤية داخل السرادق . النساء يجلسن على مقاعد متلاصقة . الأضواء الباهرة فى عمق السرادق تغشى عينيه حيث وضعوا مقطورة سيارة نقل بعد أن فتحوا جوانبها حس فوقها العروسان فى الكوشة . كلوبات كثيرة فوق رأسيهما وعلى جانبيهـ امرأة تلبس الأحمر عارية الذراعين ترقص أمامهما . رجلان يجلسان جانبا مشدودى الظهر . أحدهما يدق على الطبلة والآخر يحتضن العود . تهز المرأة وسطها وتقذف بقدمها شمالا ويمينا . تميل على الميكروفون . ينهض الرجل بعوده مقتربا منها . تغنى المرأة :

– ودلعنى . دلعنى .

يميل الرجل هو الآخر . يضرب العود بقوة ويغنى :

– آه ياعينى .

يعلو الهتاف والزغاريد من كل جانب . عنتر استخفه المراح . أزاح الجلباب عن وجهه حتى لا يلفت الأنظار إليه . غاص وسط الزحام ووقف فى المقدمة . هو لم ير المغنية من قبل رغم الأفراح الكثيرة التى حضرها . فستانها الأحمر يلتصق بجسدها ويلمع فى الضوء . تدور فى المكان تصفق بيديها والرجل خلفها يضرب على العود . تهز صدرها الضخم فينفجر صياح الرجال . تقترب من الميكروفون يتبعها الرجل بالعود .

– ودلعنى دلعنى .

– آه ياعينى .

عنتر يضحك ملتفتا إلى رجل يضحك بجواره . تلتقى عيناه بعينى عامر وكان يقف بجانب فتحة السرادق . تبادلا النظرات فى صمت . عامر يحدث رجلا يقف وراءه دون أن يستدير كأنما يخشى أن يختفى عنتر عن عينيه ، ثم يمد ذراعه فجأة مشيرا إليه . غطس عنتر وسط الرجال . شق طريقه منحنيا . حين أصبح خارج الزحام نالته ضربة على رأسه . لم يلتفت . انطلق يعدو . أصوات كثيرة تتبعه . خرج إلى الطريق . ساقاه طويلتان . لن يلحقوا به أبدا . صاح قبل أن يبلغ المصلى :

– اجر ياعم مسعد . اجر .

مال مسعد على سياج المصلى . ثم فى قفزة واحدة اندفع يعدو .

هو لم يجر فى حياته من قبل . يتهادى دائما فى مشيته . الآن يحس ببطنه تؤلمه . ضغط بيديه على جنبيه كأنما يوقف رجرجتها . يعدو بطيئا لاهثا مندفعا لا يرى شيئا . لحق به عنتر وجذبه إلى حوض ذرة بجانب الطريق . يجريان واحدا وراء الآخر على شط قناة رفيعة بين الحوضين .

الحشائش على الشط مبللة . عنتر فى المقدمة يتمايل وتنزلق قدمه فيتماسك ويستمر فى عدوه . مسعد يتأوه من حين لآخر . غاصت قدمه فى طين لزج . فقد تـوازنه وهوى على ظهره فى مجرى القناة . عاد عنتر إليه .

– امسك كتفى ياعم مسعد .

رفعه من القناة . دخلا حوض الذرة . سارا فى بطء وحذر حتى لا تتمايل العيدان فتكشف عن مكانهما . مسعد متعلق بكتف عنتر . ذراع عنتر حول وسطه يكاد يسحبه وراءه . عندما بدا له أنهما بلغا عمق الحوض أجلس « مسعد » فتهاوى على جنبه . قعد بجواره . أحس بالألم فى رأسه . هذه المرة كان شديدا . حين رأى العصا قبل أن تهوى ظن أنه غير المقصود ، وأدهشته السرعة التى نالوه بها . تحسس موضع الألم . دافئا لزجا والشعر حوله مبتل . يرى الطريق خلال عيدان الذرة . انعكاسات الأضواء تبدو كغبشة الفجر . أصواتهم على الطريق ولا يظهرون .

– صدرى ياعنتر .

فرد مسعد جسده . يلهث مفتوح الفم والعرق يتدفق غزيرا على وجهه . رفع عنتر رأسه ووضعها على فخذه وانحنى يدعك صدره وعيناه على الطريق . رآهم عند المصلى يتلفتون هنا وهناك . بعضهم هبط إلى الشاطىء والبعض اقترب من أحواض الذرة . تجمعوا مرة أخرى أمام المصلى . فكوا قيد البغل والحمار وأطلقوهما فى اتجاه البلدة . تبعهما بعينيه حتى اختفيا عن نظره . هم أيضا عند المصلى نظروا بعض الوقت إلى البغل والحمار ثم استداروا عائدين إلى العزبة .

– عم مسعد

– صدرى ياعنتر .

أخذ نفسا طويلا وجلس . رأى خطوطا قاتمة على جبهة عنتر .

– ضربوك .

نهضا . سارا فى اتجاه البلد مخترقين أحواض الذرة حتى اقتربا من العزبة المجاورة فخرجا إلى الطريق . عثرا على البغل والحمار واقفين بجوار مصلى صغير على الترعة .

★★★

هما فى الحجرة . وضع عنتر قليلا من البن فوق الجرح ولف رأسه بخرقة . قال مسعد :

– لو أنى ذهبت معك للعزبة لانتهيت من الأمر .

– أخواله يحيطون به . ما كانوا ليتركوك تقترب منه .

شربا الشاى . عنتر يعد فرشته حين سمع من يناديه فى الشارع . خرج . غاب قليلا ثم عاد .

– من ياعنتر ؟

– ولد يعمل فى المقهى .

– وماذا يريد ؟

– كان فى الفرح . يقول إنهم ذهبوا بالولد إلى البحيرة .

– البحيرة ؟ . ومن له هناك ؟

– معارفهم كثيرون

– يهربون به من مكان لمكان . ماذا يريدون ؟

– ربما ياعم مسعد ينتظرون أن تفعل شيئا آخر .

– أى شيء آخر ؟

– لا أعرف . يقولون إن الولد لا ذنب له .

– آه . قالوها أخيرا .

عنتر عيناه مثقلتان بالنعاس . ينتظر أن يتمدد مسعد . يطول الصمت بينهما . مالت رأس عنتر على الحائط ، وارتفع صوت تنفسه الثقيل ، ثم انزلق مستغرقا فى النوم .

مسعد يحدق خلال فتحة الباب الموارب . ذراعه ممدودة فوق ركبته . يرى عتمة الليل . ويَراها عندما ترق ، وضوء الفجر الرمادى ، ورأس البغل يتشمم القش حيث يرقد عنتر . اليوم السوق . تدب الحركة مبكرا . ناس تذهب وتأتى . دكانه مغلق . ترقد الكلاب أمامه .

نهض . بحث فى الصندوق عن ملابس نظيفة . خرج قاصدا الدكان . الشوارع لاتزال خالية . الدكاكين فى شارع السوق بدأت تفتح أبوابها ويخرج أصحابها البضاعة ويرصونها على اقفاص الجريد . توقفوا ونظروا إليه وهو يفتح دكانه . خلع جلبابه وعلقه على مسمار فى الحائط . يحس ثقلا فى صدره ، ورعشة فى يديه .

سحب مقعدا إلى الخارج وأشار للحلاق أن يأتى .

★★★

www.library4arab.com/vb

- ١١ -

يشتد الزحام عند منعطف الشارع الضيق ، وكأن الناس يخرجون من فوهة زجاجة . هو وعنتر متجاوران ، مضغوطان فى الزحام . صمد عنتر قليلا وكان يتحمل ثقل الضغط أمام مسعد ثم تراجع وسار بجواره . وجهه الناحل شديد الشحوب . الخرقة فوق رأسه ظهرت عليها بقعة كبيرة داكنة . ينظر من فوق رءوس الناس بعينين زائغتين . مسعد مبلل بالعرق . يشتد الثقل فى صدره . أخذ يدفع الناس أمامه . ينشق الزحام فجأة كأنه فى حلم . تتوقف الحركة حوله . هو يقف على بعد خطوتين من محل بركات . بدا له الأمر مريبا . هم طول الوقت يسيرون حوله . يتزاحمون ويصيحون ، لا يلتفتون إليه . الآن يفسحون له طريقا ويقفون على الجانبين يرمقونه فى صمت كأنما يعرفون مقصده . بركات يقف بمدخل المحل طويلا مهيبا . يلبس جلبابا أبيض وسلسلة الساعة الفضية تترجرج خفيفا فوق الجيب الصغير .

يضرب اللحم بالساطور مبتعدا بجسده عن الرذاذ المتطاير الذى علق بشعر رأسه الأسود ، ودخان بخور رقيق يتصاعد بجواره . يحدق مسعد صامتا ، يكتم لهثاته . عنتر خلفه تهدلت السترة على كتفيه . يتقدم مسعد خطوة ويصيح . أراد أن يكون صوته عاليا . غير أنه سمع حشرجة غليظة :

– عامر يابركات ، عامر .

يقف ثابتا محدقا . بركات يقطع اللحم . ذراعه ترتفع وتهبط . لم يلتفت إليه . الوجوه كأنما تبتعد ، ثم تختفى ، والهمس يستمر بجواره .

عنتر يرفع رأس مسعد عن الأرض . بركات يندفع خارجا . يحمله الاثنان إلى داخل المحل . يشير بركات لعنتر ليغلق الباب . يأخذه إلى صدره .

– آه يامسعد .

★★★

– ١٢ –

وقف عنتر على المحطة وقت الغروب ومعه سعدية ينتظران القطار.

هى ملتفة فى الملاءة تغطى وجهها طرحة سوداء .

كان عائدا من الجنازة حين قال له بركات :

– خذها للقطار . تذهب لأهلها .

قالت أمينة : تذهب بجلبابها .

كانوا يقفون فى الحوش أمام المندرة المغلقة . أرسل بركات عنتر إلى بيته ليأتى بملاءة وطرحة . حين عاد وجدهما لا يزالان فى الحوش ، ورجال كثيرون يجلسون على مقاعد خارج البيت .

همست وهو يمد إليها الملاءة والطرحة من فتحة الباب الموارب :

– انتظر الليل ياعنتر .

قالت أمينة : الآن .

خرجت من المندرة ملتفة بالملاءة والطرحة على وجهها . أمسكت بذراع عنتر ، وخرجا من باب الزريبة . كانوا ينصبون سرادق العزاء فى الشارع المجاور . سارا فى الحوارى .

المحطة خالية . ومقعد الناظر مائل على الجدار بجانب الباب المغلق .

مد عنتر يده إليها بالنقود . رفضت بهزة من رأسها . قال :

– هى نقود مسعد . تركها معى .

همست : ثمن التذكرة فقط .

أعطاها ورقة بخمسة جنيهات . طوتها في يدها . سار عنتر إلى القضبان لينظر القطار . عاد ووقف بجوارها . كان متعجلا ليحضر المعزى من بدايته .

قالت : اذهب أنت ياعنتر .

قال : سيأتى القطار من هذه الناحية .

تبعته بنظرها حتى اختفى بين أشجار الكافور العالية التى تحجب بيوت البلدة وراء ها .

روايات الهلال تقدم :

الغبى

بقلم

فتحى غانم

www.library4arab.com/vb

تصدر: ١٥ مايو سنة ١٩٩٣م

رقم الايداع : ٣٣٧٠ / ١٩٩٣م

I.5-B-N

٩٧٧ _ ٠٧ _ ٠٢٥٤ _ ٤

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb



محمد البساطى

- من مواليد بلدة الجمالية المطلة على بحيرة المنزلة .
- يكتب القصة القصيرة منذ نهاية الستينيات وقد تميز فيها بإجماع النقاد.
- صدرت مجموعته الأولى « الكبار والصغار » عام ١٩٦٨ . ثم توالت أعماله، وهى « حديث من الطابق الثالث» و« التاجر والنقاش» ١٩٧٦. و « إحلام رجال قصار العمر » ١٩٧٩ و«هذا ما كان » ١٩٨٨. ثم «منحنى النهر» ١٩٩٢.
- صدرت له روايتان قصيرتان هما « المقهى الزجاجى » و « الايام الصعبة » عام ١٩٧٩.

هذه الرواية

يسيران وسط الزحام سعيا وراء الشرف الضائع.

كانت مدافع العدو تقصف مدن القناة. وقد هام أهلها على وجوهم فى أزقة وحوارى وقرى مصر يحاولون لملمة أنفسهم للمواجهة.

كان الجرح ينزف.

البيوت فى القرية جهمة مغلقة وراء الأشجار . كعادتها دائما ترقب وتنتظر.

بيوت تحت الأشجار.

رواية تبدو وكانها لاتحكى شيئا، غير أنه تحت هذا السطح الهادئ تضطرم النار وتغلى الأعماق. نحس وهجها ونلمس تأججها دون أن نراها.